جديد
في رسالة الغفران

نص مسرحي من القرن الخامس الهجري

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)
أستاذة الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث
جامعة القرويين: المغرب

الناشر
دار الكتاب العربي
ص.ب: ٥٧٦٩-١١ بيروت

طبعة مزيدة منقحة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م


جديد
في رسالة الغفران

بسم الله الرحمن الرحيم

نستهديه ونستعين

الإهداء

إلى أستاذي الإمام أمين الخولي
في قلوبنا . وضمائرنا . وعقولنا

عائشة

مصر الجديدة :
محرم : [illegible]
مارس : [illegible]

تقديم

قضيّة منهج وتراث

قضايا وجودنا المعاصر ، هي ما ينبغي أن نشغل به .

وسُنَّة الحياة ، تفرض ألا نتناول أي موضوع من تاريخنا الفكري أو الأدبي ، إلا من حيث يبدو ذا صلة مباشرة بحياتنا اليوم .

وذلك ما لم يغب عني وأنا أختار مسرحية الغفران ، لتكون موضوع محاضراتي لهذا الموسم . (*)

والمسرحية قديمة عتيقة ، يفصلها عن زماننا نحو عشرة قرون ، فعلى أي وجهٍ يمكن أن تتصل بوجودنا الأدبي المعاصر ؟

ومن أي سبيل تأخذ مكانها بين ما نشغل به من قضايا اليوم ؟

ظاهر الأمر في هذه الصلة ، هو أن الأدب المسرحي فيما نعرف ،

(*) ألقيت هذه المحاضرات على طلاب الدراسات الأدبية واللغوية ، في « معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة » : ١٩٧٠ .

أحدث فنون الأدب العربي . وأي حديث فيه . لا يكون بعيدا عن أدبنا المعاصر ، منعزلا عن وجودنا الحاضر .

ولكنَّ وراءَ هذه الصلة القريبة بين موضوعنا وبين أدبنا الحديث ، قضية أعمقَ بعدا وأقوى اتصالا بوجودنا العلمي والقومي ، اليوم وغدا.

إنها قضية منهج :

يؤمن بأنه ما من علم يمكن أن يقال فيه إنه قد نضج واحترق ، أو أن باب النظر فيه قد أُغلق فما عاد ينتظر جديدا فيه .

وما من موضوع سبقت دراسته على أي مستوى ، يمكن أن يُدَّعى له أن الكلمة الأخيرة قيلت فيه .

وإنما هي مراحل على الطريق .

وما تحسبه كل مرحلة خطَّ النهاية وغاية المسعى ، ليس في حساب الحياة والعلم إلا خطوة على طريق المعرفة ، تبدأُ من حيث انتهت سابقتها . منتفعة بكل ما وصلت إليه .

وليس يَغُضُّ من قيمة جهدٍ سلَفَ . أن يظهر بعده ما يضاف إليه أو يعدله . أو ينسخه ويلغيه .

بل تبقى لجهود الباحثين على تتابع الأجيال . قيمتُها العلمية في تاريخ المعرفة . من حيث سارت خطوتَها وأعطت رصيدَ خبرتها وتجاربها . زاداً لمن يتابعون السير على الدرب .

وإذ أقدم اليوم جديدا من رسالة الغفران . أراه يجدي على المنهج ،

مما يرسخ من إيماننا بامتداد آفاق البحث . في موضوعٍ ظننت وظن سواي . أنه قد قُتِل درسا وبحثا . و « قَطعت جهيزةُ فيه قولَ كلِّ خطيب » على ما يقول مَثَلُنا العربي .

لقد توارد على رسالة الغفران دارسون ذوو عددٍ من غرب وشرق . ولا أعلم نصا أدبيا من تراثنا ظفر بمثلِ ما ظفرت به من شهرة وعناية :

في آخر القرن الماضي . كان المستشرق الانجليزي « نيكلسون » يقدمها إلى العالم الغربي . في « مجلة الجمعية الأسيوية الملكية »

وفي سنة ١٩١٧ . كان المستشرق الأسباني « القس ميجويل أسين بلاثيوس » يهز العالم الأدبي في أوروبا . بنظريته في أخذ « دانتي » كوميدياه الإلهية من أصول عربية . في مقدمتها قصةُ المعراج ورسالة الغفران . تلك النظرية التي شغلت دارسي الأدب المقارن في عصره . وأحدثت في الغرب دوِيًّا وصل صداه إلينا فلَفت الدارسين العربَ إلى هذه الرسالة . ومن ثمَّ أخذتْ مكانَها بين النصوص الأدبية التي يدرسها طلاب الآداب من جيلنا .

ولقد كنت من بين الطلاب الذين قرأوها – في طبعة غير محققة – على الأستاذ الدكتور طه حسين في كلية الآداب . ثم اشتغلتُ بها موضوعا لرسالة الدكتوراه . بعد أن تفرغتُ لتحقيق نصها سبعَ سنين دأبا . ونُشِر النصُّ الذي حققتُه لها في خمس طبعات للذخائر . ما بين سنتي ١٩٥٠ ، ١٩٧٠ . فضلاً عن طبعتين مزورتين ظهرتا في بيروت[١] .

---

(١) من دار صادر وبيروت ، سنة ١٩٦٤ ثم من دار إحياء التراث العربي في بيروت ١٩٦٨ .

نقلا عن نصِّها المحقق في الذخائر .

ثم إني تابعتُ الاشتغال بدراسة الغفران ، في محاضراتي بالجامعة ، ونُشِرت هذه الدراسة في ثلاث طبعات لدار المعارف بالقاهرة [١] . كما نشر الزميل الأُستاذ الدكتور « أَمجد الطرابلسي » كتابا عن « النقد واللغة في رسالة الغفران » – طبع دمشق – فضلا عن بحوث ومقالات جديدة ، نُشرت ضمنا فيما تلقت المكتبةُ العربية من مؤلَّفات ودراسات عن « أَبي العلاء » أو تاريخ النثر العربي بوجه عام .

ومع كل هذا الرواج والاهتمام ، لم أَلتفت فيما مضى ، ولا التفت أَحدٌ سواي فيما أَعلم ، إلى أن بين يدينا نصًّا مسرحيا فريدا ليس له سابقة في تراث العربية !

وحين أَنظر اليوم إلى دراستي المتخصصة للغفران ، كما قدَّمتُها إلى الجامعة منذ عشرين عاما ، أَعجب كيف فاتني هذا النصُّ المسرحي فيها ، وكيف فات الدارسين معي ، فمضوا ومضيتُ ، نبحث لها عن مكانٍ بين فنون الأَدب العربي ، ونعرضها على المقامات والقصص والأَمالي ، وعلى الرسائل الإخوانية الطوال التي تجري مَجرى الكتب المصنفة .

ونحن خالو الذهن تماما ، من أَي صلة لها بالأَدب المسرحي !

* * *

(١) الغفران : دراسة نقدية – المعارف .

ثم هي قضية تراث وتاريخ :

فمن المقررات الراسخة فينا . أن أدبنا لم يعرف الأدب المسرحي قبل العصر الحديث . والذين يؤرخون لهذا الفن المستحدث . مهما يوغلوا في التماس بوادره الأولى عندنا ، فليسوا بحيث يمضون إلى أبعد من « خيال الظل » في الماضي القريب . ثم يسارعون فيمدون أبصارهم إلى أوروبا ، بحثا عما استوردْنا من أدبها المسرحي . الغربي الحديث واليوناني القديم .

فحين نقدم إليهم اليوم نصا عربيا . من تراث القرن الخامس الهجري ، فليست المسألة عندي مجردَ إضافة جديدة إلى أصيل تراثنا في هذا الفن . ولا هي مجردَ تصحيح لخطأ تاريخي . وإنما المسألة الجوهرية في تقديري ، هي أننا بتقديم مسرحية الغفران . نلفت إلى ظاهرة غير صحية في حياتنا الفكرية المعاصرة .

فنحن قلما نشغل بمراجعة تراثنا . حيثما لاحت لنا بادرةُ الأخذ والاستيراد من الغرب . قلما نتمهل لنسأل عن عطاءِ ماضينا . قبل أن نبادر فنحكم عليه بالجدب والإفلاس والعقم .

ونجهل قيمةَ تراثنا وسخيَّ عطائه ، إما عن فتنةٍ بالغربية ترهقنا بعقدة النقص ؛

وإما عن مفهوم زائفٍ للمعاصرة ، لا يرى جدوى من الارتباط بالأسلاف ، والنظر في تراثِ عصورٍ خَلَتْ ، بل يَعدُّه أكفانَ موتى يُفسد ريحُها مناخ العصر . ثم لا يرى بأْسا في أن يشغلنا بتراث

الغرب . بل يعده منحة حيويةٍ . تحث خطانا إلى عصر القمر !

ويهون علينا التفريطُ في وعي ماضينا العريق الذي يمنحنا عزَّ الأَصالة وشموخَ الكبرياءِ وشرف الانتماء .

* * *

ووجودُنا القومي في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا . إذ تواجه أُمتنا معركتها مع قراصنة العصر ولصوص الحرية وأعداء البشر. يحتاج إلى ترسيخ وعينا بجذور أصالتنا . لكي يكون لنا منه ما يرهف إرادةَ الحياة فينا ، ويشحذ إصرارَنا على رفض الهزيمة والعار .

وما أقدمه اليوم من مجهول عطاءِ الغفران . ليس إلا مثلا تمكن أن يتكرر بصورة أو بأُخرى . في ذخائر تراثنا . ما نُشر منها وما لا يزال مدفونا في خزائن المخطوطات العربية ، ما بين شرق وغرب .

* * *

والوثيقة التي نقدمها اليوم . في مشاهد نختارها نموذجاً ومثالا . ليست مأخوذة من رسالة الغفران على وجه الاقتباس أو التصرف . بل نعرضها بنصها في الغفران . وعملُنا فيها يقتصر على تقديمها في النسق المألوف لكتابة النصوص المسرحية . دون أي مساسٍ بصياغة المؤلف لفظاً وسياقاً وحواراً . ودون أي تدخل منا في إعدادِه وإخراجه .

حرصاً منا على أصالة النص . وصيانةً لقيمته من حيث هو وثيقة تاريخية في أدبنا العربي .

* * *

وما أبيح لنفسي حق الحكم على بناء العمل المسرحي في الغفران . أو ما يُعرف في مصطلح اليوم « بالتكنيك المسرحي » ولست من أهل التخصص فيه .

وقد يرى بعض المتخصصين أن الأمر في الغفران لا يعدو أن يكون

مشاهد متتابعة ، صيغت على هذا النمط التمثيلي لتؤدي ما أراد أبو العلاء أن يقدمه من أماليه اللغوية ، وآرائه في القضايا الأدبية التي كانت تشغل عصره .

وقد يرى آخرون منهم ، أن ليس من الضروري عرضُ نص مسرحي من تراث القرن الخامس الهجري ، على القواعد التقليدية للتكنيك المسرحي ويكفيهم منه تشخيصُ الإخراج وسياقُ الحوار وفنية الرمز ، ثم لا يشق عليهم أن يلمحوا « عقدة الغفران » في المعادلة الصعبة بين زهد مؤلفها وشهوانية بطلها . أو في التورية الدقيقة لسخرية أَبي العلاء بابن القارح ، في هذا الدور العجيب الذي اختاره له وفرضه عليه ، على وجه التمني والرجاء ، من صديق يطمع له في حسن المآب ونعيم الآخرة .

أَو لعل عقدتها في المأْزق الحرج ، الذي يجعل تصور أبي العلاء لعالمه الآخر ، مظِنةَ التباسٍ بالحياة الآخرة في العقيدة الدينية .

وهم يعرفون أَن من كُتَّاب المسرح الحديث ، مَن يتمردون على جمود القواعد التقليدية ، ويقررون أَن الرؤى الفنية أرحب من أن تُصب وتُضغط في قوالب محددة ، وأن أصالة الفن تعطي الأَديب حرية التصرف وحق اختيار الأُسلوب الذي يعبر به عن رؤيته الوجدانية لِعالَمِه .

وعلى أَي وجهٍ أخذها هؤلاء أو هؤلاء ، فليست بحيث لا تقوم مع « خيال الظل » الذي لم ينسوه في تـأْريخ هذا الفن .

وقُصارَى ما يعنيني هنا من القضية . هو أن أقدم إلى تاريخنا الأدبي هذه الوثيقة لمحاولة الغفران الرائدة . تصحيحاً للشائع المعروف من حداثة عهدنا بالأدب المسرحي . ولَفْتاً إلى ما لا يزال محجوباً عنا من عطاء تراثنا .

وإيماناً بأنه ما من موضوع سبقت دراسته . على أي مستوى . يمكن أن يكون قُتِل بحثاً وقيلت الكلمة الأخيرة فيه . بل يظل المجال مفتوحاً أبداً لجديدٍ فيه يقال .

وسبحان من « خلق الإنسانَ ، عَلَّمَهُ البيانَ » .

مدخل تاريخي

- أبو العلاء: المؤلِّف!
- والرسالة
- وابن القارح: البطل

نص الغفران يحتاج إلى إضاءة كاشفة لشخصية مؤلفه ، وعالمه النفسي حين أملى هذه الرسالة في الستين من عمره .

وقد حاولت في أول الأمر ، أن أقدمه هنا في تعريف موجز ، لكني ما لبثت ــ أثناء محاضراتي لطلاب المعهد في مسرحية الغفران ــ أن أدركت قصور محاولة التعريف الموجز بأبي العلاء .

وإذ سبق لي أن صحبته طويلا فيما ترك من آثاره ، واستخلصت منها حديثَه عن رحلة حياته ، رأيت من المجدي أن أُقدم للغفران بهذا الحديث معتذرة عن الإطالة فيه ، بأنه ضرورة لا غنى عنها لكل من ينظر في الغفران ، فلا يُعوزه الفهمُ الثاقب لشخصية أَبي العلاء ، والإصغاءُ إلى صدى صوته فيما حملت إلينا آثاره من رحلة حياته وتجربته مع الدنيا والناس ، دليلا مرشداً إلى عالم الغفران .

أبو العلاء المعري (*) :

أَحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي .

ينتمي إلى قبيلة تنوخ القحطانية ، من العرب الأَصيلة العاربة .

وبيتُه بيت علم ، قدَّم إلى بلده أعلام القضاة والعلماء والأُدباء ، جيلا بعد جيل .

وُلد أَحمد بمعرَّة النعمان من أَعمال حلب ، في مغرب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأَول سنة ٣٦٣ هـ .

وبدأَ خطوتَه على الطريق المهيَّإِ لمثله ، مرجوّاً لمستقبل مرموق ، بما تلقى من ميراثِ سلالته العريقة في الفضل والعزة ، والعلم والأَدب .

ولكنه ابتُلي بصدمة فادحة ، قبل أَن تستقيم خطوتُه على الدرب :

اعتل في سنته الرابعة علةَ الجدري ، فما أَبل منها إلا بعد أَن شوهت وجهه بندوبٍ لا برءَ منها ، وذهبت بنور بصره فأَسدلت بينه وبين الدنيا حجاباً أَسود ، لا أَملَ في انحساره حتى آخر العمر .

ومن ذلك الحادث الملمِّ ، في الطفولة الباكرة ، بدأَت رحلةُ أَبي العلاءِ في هذه الدنيا وقصته معها .

* * *

(*) مستخلص من كتابي « أبو العلاء المعري » ط أعلام العرب سنة ١٩٦٥ .

تعثرت خطوتُه الأُولى على الطريق ، فقاده أَبوه إلى عالمٍ يمنحه نور البصيرة ، ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام بصره .

قرأ القرآن على أئمة من شيوخ القراءات ، وسمع الحديث من أبيه وجده وجدته ، وجماعة من محدثي بلده في زمانه . وتلقى علوم العربية على أَبيه ، وعلى جماعة من أَصحاب « ابن خالويه » فظهر من مخايل نجابته وفطنته ، ما جعل أَباه يمضي به إلى حلب ــ وفيها أخوالُه بنو سبيكة ــ حيث تلقى النحوَ على إمام العربية في حلب : محمد بن عبد الله بن سعد النحوي ، راويةِ الشاعر أَبي الطيب المتنبي .

* * *

من عهد صباه الغضِّ ، ظن أَبو العلاءِ أنه اهتدى إلى سلاحه في معركة الوجود ، وعرف طريقه على الدرب : مواهبُه تُعوضه عن عجزه ، ونورُ العلم يمنحه الضياءَ الذي حجبه فقدُ بصرِه .

وفي اعتدادٍ وإصرار ، صمَّم على أن يتحدى محنتَه ويشق سبيله لا يعوقه فقدُ البصر . وبلَغ المدى في مكابرته ، فرُئي في صباه يلعب النرد والشطرنج ، ويأْخذ في فنونِ الجد واللهو كما يفعل لِداته المبصرون .

وبدا كأَن الدنيا لا تتسع له ، لفرطِ طموحه واعتداده بمواهبه :

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم
بإخفاء شمسٍ ضوؤهـا متكامـلُ

يهم الليالي بعضُ ما أنـا مضمر
ويُثقِل رضوى دونَ ما أنا حاملُ

وإني وإن كنتُ الأَخيرَ زمانُـه
لآتٍ بما لم تستطعه الأَوائـلُ

وأغدو ولو أن الصباح صوارمٌ
وأَسري ولو أن الظلام جحافـلُ

ولي منطِقٌ لم يرضَ لي كُنْهَ منزلي
على أنني بين السماكَيْنِ نـازلُ

لدى موطنٍ يشتاقه كلُّ [illegible]
ويقصر عن إدراكِـه المتنَـاوِلُ

ينافِسُ يومي فيَّ أَمسي تشرفـا
وتحسُدُ أسحاري عليَّ الأَصائـلُ

« سقط الزند »

لِيَ الشرفُ الذي يطأُ الثريـــا
مع الفضلِ الذي بَهـرَ العبــادا
ولو ملأَ السُّهَى عينيــه مـــنّي
أبرَّ عــلى مَدَى زُحــلٍ وزادا
أَفُلُّ نوائبَ الأيــام وحـــدي
إذا جمعتْ كتائبَهــا احتشــادا

« سقط الزند »

* * *

وأملى له القدَرُ حينا ، فمضى في شبيبته على غلوائه ، يبهر أهلَ بلده بنادر ذكائه وسعة علمه ومواتاة شاعريته ، ويسرف في أخذ نفسه بالتفتح للدنيا والإقبال على الحياة ، مع الولع بالعلم والجِدِّ في طلبه .

* * *

وما كان في لطفِ حِسِّه وصفاءِ وجدانه وعجيبِ فطنتِه ، بحيث يغيب عنه عُقمُ هذه المكابرة في تحدي محنته ومعانَدةِ قدره ، وقد أفلتَتْ منه ، في ذلك العهد ، ومضات كاشفةٌ عن عالَمه النفسي المجهَد بالصراع بين شَدِّ الطموح وعجز الوسيلة ، بين إرادةِ الحياة وخيبةِ الرجاء .

وفيما هو حائرٌ بين اليأس والأمل ، بين المكابرةِ والرفض ، مات

أبوه سنة ٣٩٥ هـ [1] فنفذت الطعنة إلى صميم كيانه ، وفقد الشاب الضرير مَن كان له أبا وصديقاً وقائداً مرشداً . فتركته اللطمةُ في مهب الريح لا يقر له قرار :

لقد مَسختْ قلبي وفاتُك طائـراً
فأقسم ألا يستقـرَّ عـلى وكْـنِ
يُقضِّي بقايـا عيشِه ، وجناحُه
حثيثُ الدواعي في الإقامةِ والظعن
كأَن دعاءَ الموت باسمِك نَكْزة
فرتْ جَسدي والسُّمُّ ينفث في أذني
فهل أنت إن ناديتُ رمسك سامعٌ
نداءَ ابنِك المفجوع بل عبدِك القن
ونادبةٌ في مسمعي كـلُّ قينـةٍ
تُغَرِّدُ باللحنِ البريءِ عن اللحن
وأَحملُ فيك الحزنَ حيًّا فإن أَمُتْ
وأَلقَكَ لم أَسْلُكْ طريقا إلى الحزن

« سقط الزند »

(1) ابن العديم : الإنصاف والتحري / ص ٤٩٣ من تعريف القدماء .
وانظر تحقيق عام الوفاة ، في كتابي « أبو العلاء المعري » ص ٦٦ .

كان حين تلقى اللطمة ، في الثانية والثلاثين من عمره .

وفي غربته النفسية ، اتجه تفكيره إلى « بغداد » عاصمة الدنيا ، فشقَّ عليه أن يفارق أُمَّه في معرة النعمان .

وقد كانت تفيض عليه من حنانها ، ما يؤنس حياته الموحشة ، ويضيءُ شعاعا في ظلمة دنياه .

وطال تردده بين رغبته في السفر ، وإشفاقه من فراق أُمِّه .

واستغرق تأَهُّبُه النفسي للرحلة إلى بغداد ، نحو ثلاث سنين .

ثم أَجمع أَمره ، فشدَّ الرحالَ إليها ليجدَ نفسه في دوامة الموج الهادر لمجتمع العاصمة .

* * *

لماذا أَلقى بنفسه ، وهو الضرير المستطيع بغيره ، في ذلك الخِضَمِّ الهادر ؟

وماذا لقي في العاصمة الكبرى من صدمة زلزلت كيانه ، ودفعت به إلى إصدار القرار الصارم على نفسه بالعزلة والحرمان ؟

ظاهرُ الأمر أنه ، بعد أن بهر إقليمَ حلب بعلمه وأدبه ، أحب المقام « بدار العلم ، لمكان دارِ الكتب بها » كما قال (١) .

ولكن وراء هذا السبب الصريح الظاهر ، عاملا خفيا في أعماق وجدانه :

كانت الأيام قد أنضجت وعيه لذاته ، وكشفت له عن عُقم مكابرته ، لكنه ظل يقاوم دواعي القنوط ، ويفر من الاستسلام للهزيمة فيما أراد من تحدي الدنيا « ومعاندة القدر » .

حتى بدا له آخر الامر أن يحسم معركته بالسفر إلى بغداد ، ليبلو طاقته على المضي في المقاومة والمعاندة .

وأغلب الظن أنه صفى قبل الرحلة حسابَه مع طموحه ، فلم يستبقِ منه إلا الأملَ في المجد العلمي والجاه الأدبي . وإذ كان قد ظفر في إقليم حلب والشام ، بشهرةٍ بعيدة المدى ، فقد بقي أن تعترف به العاصمة . فشدَّ رحاله إليها يحدوه رجاء في أن يفر من الهزيمة التي أحس بوادرَها في أعماق وجدانه ، وأملٌ في أن يفرِض وجوده على الدنيا والناس .

وتزوَّد للرحلة بأسلحته التي يملكها :

---

(١) في رسالته إلى أهل المعرة ، عند منصرفه من العراق عائداً إلى محبسه .

ذكاءٌ شبه أُسطوري ، وفقهٌ عميق لعلوم العربية والإسلام ، وموهبةٌ أَدبية أَصيلة مبدعة .

* * *

في محلة « القطيعة » على شطِّ دجلة ، كان منزله .

ومن ماله الذي حمله معه من المعرة ، كان يدبر ضروراتِ عيشه .

وتوافد عليه البغداديون يختبرونه [1] ، غيرَ مكتفين بشهادة إقليمية حملها معه أو سبقتْه إلى مدينة السلام . فالذي يبهر الناس في المعرة أو في حلب والشام ، قد يكون في العاصمة الكبرى غير لافتٍ ولا مثير ، ولا بد من أن يكون لأَهل بغداد الكلمةُ العليا فيما اشتهر من واسع علمه وعجيب حفظه وندرة ذكائه وقوة شاعريته .

واجتاز الامتحان بنجاح .

وأَقر له البغداديون بأَنه أُعجوبة الزمان في حفظه وعلمه باللغة ، كما شهدوا لشاعريته فأَقبلوا يقرأُون عليه ديوانه « سقط الزند » .

لكن العاصمة ما لبثت أن كشفت له عن قناعها ، وأَلزمتْه أَن يُعيد النظر فيما تزود به للمقام فيها :

الأَدب ؟

لا جدوى منه إلا إذا عزف للسلطان وتمرغ على أَعتاب السادة ذوي الجاه والنفوذ .

---

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار / ص ٢٢٦ من التعريف .

العلم ؟

إن مجتمع العاصمة في عصرِه ، يقدر مَن يعرف كيف يأْتي بالذئب من ذيله ، أَكثر من تقديره لمن يعرف له سبعين اسماً أَو ثمانين .

عفة الضمير وكرم الخلق ؟

يا لها من بضاعة نافقة ، في سوق يروج فيها النفاقُ والزيف والتضليل .

وأَجمع أَمره على الانسحاب والعزلة وهو ما يزال في خِضَمِّ المعترك ، وقد عرف أَن أَسلحته مفلولة تغلبها أَسلحة أُخرى لا يملكها : من مَكْرِ الحيلة ونعومة المداهنة ، وبراعة النفاق ، ولؤم الاحتيال .

وأَحس أَلَّا مكان له في دنيا الناس ، وقد أَعوزه عمى البصيرة وبلادةُ الشعور والضمير ، ومرونةٌ في الخلق والطبع يتلون بها في دنيا الثعالب والذئاب ، وموكبِ المنافقين والمهرجين .

وبدأت رحلة الإِياب ، وهو في بغداد مقيم

انسحب منها نفسياً ، حين أَدرك بملءِ يقينه أَن المكابرة ضالة ، وأَن الأَمل في الرِيِّ سراب ، وأَن التحدي عقيم :

فيا دارهـا بالحزن إن مَزارَهـا
قريبٌ ولكنْ دون ذلك أَهـوالُ
تمنيت أَن الخمرَ حلـت لنشوةٍ
تجهِّلني كيف اطمأَنتْ بيَ الحالُ

فأذهل أني بالعراقِ عـلى شفى
زريّ الأَماني لا أنيس ولا مالُ

وهمَّ بالرحيل فتشبث به أَهل بغداد محزونين لفراقه ، وهو أَشد منهم حزناً ، قد لبس الحدادَ على أَمانيه الموءُودة وطموحِه المقهور ومسعاه المغلول ، وأنشد مودِّعاً دنياه ، في بغداد :

أُودِّعكم يا أَهلَ بغـدادَ والحشا
على زفراتٍ ما يَنِينَ من اللذْعِ
وداعَ ضنىً لـم يستقل وإنمـا
تحامل من بعدِ العثار على ظَلْعِ
ألا زَوِّدوني شربةً ولـو أنـني
قدرت ، إذن أَفنيت دجلةَ بالجرع
أَبيتُ فلم أَطعم نقيعَ فراقكـم
مطاوعة حتى غُلبتُ على النشع
لبِست حِداداً بعدكم كلَّ ليلـة
من الدهم ، لا الغُرِّ الحسان ولا الدرعِ

« سقط الزند »

وفي عام أربعمائة ، لست ليالٍ بقين من رمضان ، ركب راحلته وألقى قيادَه إلى من يمضي به في رحلة الإياب .

موزَّع الخواطر بين حزنٍ على فراق « أنفسِ مكانٍ لم يسعف الزمان بإقامته فيه » .

وشوقٍ إلى راحة اليأس ، ولهفةٍ على لقاء أُمِّه ، وقد بلغه أنها مريضة بمعرة النعمان .

* * *

آب الضرير بحسرتِه إلى منزله بالمعرة ، ليجد أُمَّه قد رحلت عن الدنيا بغير وداع ...

وترنح كيانه الجريح من وطأة اللطمة الساحقة ، فما عاد يجد نفسه إلا فيما أجمع عليه أمره « من عزلةٍ وانفراد » .

وأوصد بابه ، لا يأذن لزائريه في الدخول ولو كانوا من ذوي القربى .

ثم رقّ قلبه لضراعتهم [1] ، ففتح بابه ليستقبل طلاب العلم ، ولتكون إليه رحلة العلماء من مشرق ومغرب .

وانقطع للتدريس والإملاء ، فإذا خلا إلى نفسه في غير أوقات الدرس ، فللعبادة والتأمل .

وما باختياره كان يلقى زائريه ؛

ولا باختياره كان قرارُه الصارمُ بالعزلة ، وإنما حمله عليها عجزُه عن احتمالِ نُكْرِ العصرِ وفسادِ المجتمع .

* * *

وهان عليه أن يعيش صائمَ الدهر . وأن يمضي في محبسه تسعاً وأربعين عاماً ، محروماً من الزوج والولد وطيبات الرزق : « طعامُه البقلُ ، ولباسُه خشن القطن ، وفراشه سجادته : من لبّادٍ في الشتاء ، ومن حصيرِ البردي في الصيف » .

وكان له إيراد يسير يأتيه من وقف : بضعة وعشرون ديناراً في السنة ، يدفع نصفَه أَجراً لخادم وورّاق ، ويقيم أوده بالنصف الباقي . فإذا ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاء بضروراتِ العيش تخلّى عما

(١) ابن العديم : الانصاف والتحري / ص ٥٤٨ من تعريف القدماء .

يطيق الاستغناءَ عنه منها ، وأبى أن يلتمس زيادةً في رزقه من أيٍّ سبيل .

وذلك كله قد هان عليه .

أما الذي لم يهن عليه ، فهو مُجاهَدة ما رسَخ في نفسِه من حب الدنيا ، وما ظلَّ يكابد من ظماءٍ إليها وشغفٍ بها . مع إصرارِه على رفضِها .

وإلى آخر عمره ، ظل يئن من عجزه عن أن يقهر في نفسه حبَّ الدنيا ، والتماس راحةِ اليأْس منها والسلو عنها ؛ وإن ظنَّ الناس أنه وطئها بقدميه من لحظة انسحابه إلى محبسه !

ومن صميم عزلته ، يأْتينا صوتُه ، كاشفاً عن عذاب المجاهدة ، وناسخاً ما شاع فينا وذاع ، من بغضه للدنيا وزهده فيها :

« أُحِبُّ الدنيا وآلتُها ليستْ فيَّ ، وقد يئست من بلوغها واليأْس مريح ، فإلامَ التشوف والضلالُ ؟

« إنما أنا رجلٌ بُليَ بالصدى ، لا يجد مورِداً ، فهو ظمآن أبداً »

« أيتها الدنيا البالية ، ما أَحسنَ ما حلتك الحالية ، والنفسُ عنك غير سالية »

« بي طَبٌّ فأَين أستطب ، وأنا تحت حبِّ الدنيا مُحِب ، أثقلني فأنا مُكِب » .

« الفصول والغايات »

وصَدَقتُ هذا العيش في حي له
واغترني بخداعِه وكذبه
عذبٌ يُعذبني البقاءُ ولِلردى
يومٌ يخلِّصُ من فنون عذابِه

* * *

لو أن عشقك للدنيا له شبحٌ
أبديتَه . لملأْتَ السهلَ والجبلا

* * *

شَقِينا بدنيانا على طولِ وُدِّها
فدونَك مارسْها حياتَك واشقَها
ولا تُبْدِيَنَّ الزهدَ فيها فكلُّنا
شهيدٌ بأن القلب يُضمِرُ عشقَها

* * *

أَيها الدنيا لحاكِ اللهُ من رَبَّةِ دَلِّ
ما تَسَلَّ خلَدي عنكِ وإن ظنَّ التسلي

* * *

أُشربتُ حبَّكِ لا يَنفيه عن جسدي
سوى ثرى لدماءِ الإنسِ شَرَّابِ

* * *

وأعوزني مــاءٌ أُزيــل به الصدَى

فلا عيشَ إن لم أشرب الكدِرَ الطرقا

وحُبيَ للدنيــا كحبِّكَ خالصــاً

وفي عُنُقَينا من هوىً جَعَلَتْ رِبْقاً

* * *

لُبْتُ حول المــاءِ من ظمــــأ

إن غربــي ما لـــه مــرسُ

مهْجــتَي ضِــدٌّ يحاربـــني

أنــا مِني ، كيف أحترسُ !

* *

تباركتَ يا ربَّ العلا أنت صُغْتَها

فليتك في أرزائهــا لم تُبــاركِ

أُعانِقُهــا عنــد الوداع تشبثــاً

وكيف وداعٌ بين قالٍ وفــاركِ

* * *

وقال الفارسون . حليفُ زهد

وأخطأَتِ الظنــونُ بمــا فَرَسْنَــهْ

ورُضْتُ صِعــابَ آمالي فكانت

خيــولا في مراتِعِهــا شمَسْنَــه

ولم أُعرِض عــن اللـــذات إلا
لأَن خيارَهــا عــني خَنَسْنــه

« اللزوميات »

* * *

ومن هنا كان عذابُه وكانت مجاهدتُه .

لم يَجد مدى الدهر ، كما قال ، راحةً من هذيانِ أَمانيه.

ولا ظَفِر براحة اليأْس من دنيا يُحبها ، وآلتُها ليست فيه .

وذلك ما ينبغي أَن نذكره ، مما يضيءُ لنا عالَمه النفسي في « رسالة الغفران » التي أملاها في هذا الدور من رحلةِ حياته .

* * *

والحقُّ أننا لا نستطيع أن نفهم « رسالة الغفران » وسائر آثارِ أبي العلاء ، ما لم نتحرر من الفكرة المسيطرة الذائعة عن انتصاره على الدنيا وزهدِه النفسي فيها بمجرد أن أعلن انسحابه منها .

بل لن نقدر مجاهدتَه الباسلة حقَّ قدرِها ، إذا فاتنا ما كان يُكابد من أشواقِه المكبوتة . ولو صحَّ القول إنه « وطىء الدنيا بقدميه فانقادت له » [1] . و « ملأَ قلبَه عن لذاتها بالعزاءِ النافع والصبر الجميل » [2] وكان الزهدُ طبيعةً فيه ، لما كان في سلوكه ما يغري بالوقوف عنده أَو يَحمِل على شيءٍ من التقدير ، بل يكون الحرمان هيناً عليه ما دام مُيَسَّراً للزهدِ مجبولاً عليه .

وإنما كان سلوكُه موضعَ تقدير لأَن الرجل استطاع مع حُبِّه للدنيا

(١) عبد العزيز الميمني . أبو العلاء وما إليه . ط . السلفية ١٣٤٥ .
(٢) د . طه حسين : تجديد ذكرى أبي العلاء . ط . المعارف .

وعجزِه عن السلوِّ عنها ، أَن يـأْخذَ نفسه بهذا الحرمانِ الصارم ويصبر عليه .

لقد باع الدنيا ، أَشدَّ ما يكونُ شغفاً بها ، واشترى حريتَه وكرامتَه وضميرَه ، في زمنٍ أذلَّ الحرصُ فيه أَعناقَ الرجال .

وكان انسحابُه من المعترك ، احتجاجاً عملياً على نُكْرِ العصر وفسادِ المجتمع ، ورفضاً مُعْلنَاً لِمسْخِ القِيَم وضلالِ المقاييس واختلالِ الموازين .

إن يكن قد امتُحِن بعمى البصر ، فقد بقي له نورُ البصيرة .

وإن يكن قد عاش في سجنٍ موصَدٍ ، فقد أرهفت العزلةُ وجدانَه ، ومنحته صفاءَ الذهن ووضوحَ الرؤية ، فكان البصيرَ الذي خبر الدنيا كما لم يخبرها الغارقون إلى أذقانهم في خِضَمِّها ، المعتزلَ الذي خاض معركةَ الحياة كما لم يَخُضْها الضاربون في غِمارِها .

وفي بسالة نادرة ، أعلن صيحةَ الاحتجاج على المنافقين والمرائين والنفعيين ، ووَاجَه جبروتَ الحكام بكلماتِه الصادعة ، وأعلن الحربَ على الذين استغلوا جهلَ العامة ، فجعلوا السياسةَ والدينَ والعلم والأَدب ، مصيدةً لرزقٍ غيرِ حلال .

وإلى آخر عمره ، ظل يخوض معركتَه الشريفةَ الباسلة ، في مجاهدةِ شغفِه بالدنيا وتعلقه بها ، وفي رفضِ الظلم والبغي والتضليل والأَثرةِ والنفاق .

وإذا كانت الجماهيرُ قد تبلَّد حِسها لطولِ ما سيمَتْ من ظلم ، وفداحةِ ما تعرضتْ له من تغريرٍ وتضليل ، وما تسلَّطَ على وجدانِها من إلحاحٍ في تبريرِ فسادِ الأَوضاع ،

فإن أَبا العلاءِ لم يُعْفِها من التبعة ، ولم يرضَ لها أَن تصبر على الضيم ، وأَن ترسُف في الأَغلال مُنوَّمة بالزيف ، ومنصرفةً عمن يدعو فيها بدعاءِ العدل الاجتماعي والخير العام :

أعاذِلَ قد ظلمتْنا الملوكُ
ونحن على ضعفِنا أظْلَمُ

* * *

اسكتْ ، وخَلِّ مُضِلَّهم وشئونَه
ليسوقهم بعصاه أَو بحسامه
نصِحوا فما قبلوا ، وباعوا كثكثا
من شرِّ معدنه ، بقيمة سامه
فكأَنها غَنَمٌ ترود إسامَها
من لا يبالي كيف حالُ مَسامه

* * *

« اللزوميات »

هل كان من المَتوقَّع ، أن يدَعَه كلُّ هؤلاءِ الذين تصدى لخصومتهم يكشف عن غيهم ونفاقهم وزيفهم ، وأن يُخلوا بينه وبين الجماهير المَضلَّلةِ يوقظ فيها الوعيَ والتمردَ ، ويُمزِّق عن وجدانِها حُجُبَ الغفلة ؟

مِثلُ أبي العلاء مَن يُعَدُّ في نظرِ عصره ، وكلِّ عصرٍ فاسد ، خارجا على المجتمع متمرداً بسلوكه وقوله على أوضاع مقررة ونظمٍ سائدة وأعرافٍ مألوفة .

وليس من طبيعة الأَشياء أن يغفر المجتمعُ هذا الخروجَ المتحدي ، وأن يدعَ أبا العلاءِ يقولُ ما شاءَ ، دون أن يتصدى له بتحدٍّ مقابل ويفرض عليه عقوبةَ التمردِ والعصيان .

وإذ لا سبيل لخصومِه إلى زَجْرِه بحرمانٍ أو إغرائه بعطاءٍ أو الحجرِ على حريته بحبسٍ أو نفي ، فإن في عقيدتِه منفَذاً لخصومِه إليه ، من حيث لا يحتسب .

مُستغلِّين في ذلك ، العاطفةَ الدينية للجماهير ، وموقنين أنها ما تكادُ تسمعُ عنه قالةَ سوءٍ في عقيدته ، حتى تصدَّ عنه وتُنكرَه ، دون أن تتريث لتتحرى التهمةَ أو تميزَ حقا من باطل .

وقَلَّ من بين أَحرارِ الفكرِ والكلمةِ مَنْ لم يتَّهم في عقيدتِه .

وأبو العلاءِ قد خالف بسلوكِه جمهورَ المسلمين ، فحرَّم على نفسه ما أَحَلَّ الله من طيِّبات الرزق ، وامتنع عن الزواج ، وجهرَ بأَقوال تنم عن حيرتِه . وأُخرى صريحةِ التجريحِ لرجال الدين .

فمن هنا يُمكِنُ أَن يُطعن .

وقد تلقى الطعنةَ الجارحة ، في حياته ، واحتملها على مَضَضٍ ، مفوِّضاً أمره إلى خالقه ، وموقنا أن مثلَ هذا البلاءِ ضريبةٌ مفروضة على كلٍّ من يتحدى العُرفَ العام .

وكانت صلابته في الزهد والتعفُّف ، مَظِنةَ أَن تحميه من الظِّنَّة والريب .

لكن العصر الذي هضم الحقوقَ وأَهدر الحرماتِ وأَساغ الكبائرَ والمنكراتِ ، كان له في الموقف رأيٌ آخر : يَعُدُّ الزهدَ في زينةِ الدنيا إثما ، والقناعةَ خطيئةً ، والصومَ عن طيباتِ الرزق معصية .

لعمري لقد عزَّ المباحُ عليكم وهانَ بجهلٍ ما يُصَان ويُحظر

وكان أن خرجت قضيةُ « صائم الدهر » من نطاقِ السلوك الشخصي

لزاهدٍ متعفف ، إلى جدَلٍ كلامي مُعنِت ، في حِكْمةِ الخالق ونظامِ الكون ورُتَبِ الكائنات ومشكلة الخير والشر !

ولعلهم أفلحوا في إعناته .

وإن لم يُفلحوا في حَمله على العدول عن مسلكه ، ورضي أن يلقى الله سبحانه « وهو لا يُطالب إلا بما فعل من اجتنابِ اللحوم والملذاتِ ؛ فإذا وصل إلى هذه الرتبة فقد سَعِدَ » (١) .

على أن ما عاناه من ذلك كله . كان أهوَنَ عليه مما آلمه و أضناه ، من افتراءِ مُفترين ، أساءُوا تأْويلَ أقواله ، وحرَّفوها عن مواضِعها ؛ وتقوَّلوا عليه بما لم يقله .

ومن شأْنِ كلمةِ السوءِ أن تشيع ، وإنْ شَهدتْ آثارُه بقوةِ إيمانِه وصوفيةِ وجدانه ، وشهد له الذين عرفوه من قُرب ، بصحةِ العقيدة وصدقِ اليقين .

واضطرب الناسُ في أَمره :

بين ما يعلمون من صلابتهِ في الزهد ، ونادرِ وَرعِه وتقواه ، ويسمعون من أَماليه وأَشعارِه في التوحيدِ والعظات ، والشهادةِ له بصحة العقيدة وقوة اليقين ورسوخِ الإيمان ؛

وبين ما يشهدون من خروجه على الجماعة بالامتناع عما أَحلَّ الله

(١) من رسالته الأخيرة إلى داعي الدعاة . انظرها في « رسائل أبي العلاء » مرجليوث .

من طيبات الحياة الدنيا وزينتها ، ويسمعون من قَدْحٍ فيه وتجريح[1].

وبعضُ هذه البلبلة ، يكفي لصدِّ عامةِ الجماهير عن أَبي العلاء .

وهو ساهرٌ في دُجَى الليل البهيم يترقب ان يلوح الغلس ، والصبحُ ناءٍ بعيد :

طالتْ على ساهرٍ دُجُنَّتُــــه والصبحُ ناءٍ ، فمَنْ لنا بِغَلَس

وصمد للتجربة حتى آخر العمر ...

تخاذلتْ أَعضاؤه ، ووهَن جسمُه

وما خذله صفاءُ ذهنِه ، ولا وهنتْ عزيمته وطاقتُه على المجاهدة ...

* * *

حتى أَراحه الموتُ من محنة الحياة ...

فارق الدنيا في أَوائل ربيع الأَول ، من سنة ٤٤٩ هـ ؛

تاركا وصيته أَن يكتبوا على قبره :

هذا جناه أَبي عليَّ وما جنيتُ على أَحدْ

ومُسجِّلاً بها في لحظةِ النهاية ، مأْساةَ حياتِه وموقفَه منها .

وشيَّعوه إلى مثواه الأَخير ، حيث أَضجعوه في لحده .

---

(١) انظر مختلف الأقوال فيه ، بالرجوع إلى فهرس « تعريف القدماء بأبي العلاء » ص ٦١٢ ط دار الكتب المصرية ١٩٤٤ .

وعلى قبرِه وقف أربعة وثمانون شاعراً يرثونه[1] ، وهو مُغيَّبٌ تحت الثرى لا يسمع صوتَ مفجوعٍ فيه ، ولا يُجيب نداءَ محزونٍ عليه .

ولمدى سبعة أيام ، أقام مقرئو المعرة على قبره يتلون القرآن حتى أتموا مائةَ خَتمة[2] .

ثم انفض المأتم .

واستراح المتعب ، ونام بعد طولِ أرقٍ وسهاد .

* * *

* رفض الحياةَ وماتَ قبل مماتِه * كما قال راثيه[3] .

لكنه فرضَ نفسَه على الحياةِ ، وخاض معركتَه من وراء قبره ، ضدَّ ضلالِ المقاييس واختلال القيم .

ومضى « مقطوعَ النسل مُجتثَّ الفرع » كما قال عن نفسه .

لكنه ترك تراثَه يُقاوم محنةَ الاضطهاد ، ويبقى له منه ، غير الذي عدتْ عليه عوادي الضياع ، ما يحيا به في ذاكرةِ التاريخ وضميرِ الإنسان ...

وقد أَلقت عصورُ الظلام بتراثه في منطقةِ الظل ، وشُغِلَ مؤرخو الأَدب بالكلام في عقيدته ، فظلت تهمةُ الإلحاد تُلاحقه فتغري

(١) ياقوت : إرشاد الأديب ، ترجمة أبي العلاء .
(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، وابن حجر : لسان الميزان – أبو العلاء .
(٣) الأمير أبو الفتح الحسن بن عبدالله بن أبي حصينة المعري . وانظر المرثية في « تتمة المختصر لابن الوردي » حوادث سنة ٤٤٩ ط الوهبية .

الأجيالَ بنبذِه ،

وفي الأُفقِ رجعُ صدىً من صوتِه :

لا تَظلموا الموتى وإن طال المدى

إني أخَـافُ عليكمُ أن تلتقـوا

يهز ضمائر بعض المؤرخين ، فعكفوا على دراسة القضية واستقرأُوا كل ما في « ملف أوراقها » من أقوال ، ثم تصدوا للدفاع عن عقيدة أبي العلاء ، عن صدق اقتناعٍ بصحة دينه ونقاءِ إيمانه . وغضباً لما لحقه من ظلم الافتراء [1] .

وظلَّ مع ذلك مظلوماً .

ومضت قرونٌ وظِلُّ التهمة يَحجبه عن أَجيالٍ من أبناء العربية .

ومن عَجَبٍ أَن العصور التي رجَمتْه ـ وكانت عصورَ غربةٍ للإسلام ـ أنكرتْ عليه ما حرَّم على نفسه من طيبات الرزق ، ولم تنكر إباحةَ المحرمات وانتهاكَ المقدسات ؛ ورأَتْ في امتناعه عن أكل اللحوم وشرب اللبن إثماً ، ولم تر إثماً في محافِل المجون وحاناتِ السكارى ، وأَكلِ حقوق الناس وشُرب دمائهم ...

وأَخَذَتْه بكلماتٍ جرى بها لسانُه تخفيفاً عن كربه واحتجاجاً على اختلالِ الأَوضاع ونفاقِ محترفي الدين ، ولم تـأْخذ آخرين بادعاء النبوةِ

---

(١) منهم : ابن العديم في (كتاب الإنصاف والتحري ، في دفع الظلم والتجري ، عن أبي العلاء المعري) والقفطي في (إنباه الرواة) وابن الوردي في (تتمة المختصر) وابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار) وانظر معها كتابي : (أبو العلاء المعري) ٢١٣ – أعلام العرب و(الغفران) ص ١٥٦ ط ٣ دار المعارف ١٩٦٧ .

واعتناقِ المثنوية . والجهر بالحلولِ والتناسخ والرجعية . ووثنيةِ تأْليه البشر !
وكأَنْ لم يكن في الدنيا غير « أَبي العلاء » ، عدوًّا للدين ، وخطراً على الإسلام والمسلمين !

* * *

وزادوه تشويهاً . فقالوا « إنه عدو المجتمع » ، وما كان عدواً إلا لأَعداءِ المجتمع .

وقالوا : « متشائم يئد الطموح » وما كان سلوكه إلا احتجاجاً على موازين تهبط بِقيمِ الحق والخير والجمال ، فتشل المسعى وتقهر إرادة الطموح .

وجحدوه أَديبـاً بدعـوى، أَنه فيلسوف
وجحدوه مُفكراً حكيما بدعوى أَنه أَديب..
وصوتُـه يأْتـي من وراء القبـور :
* أُولـو الفضـل في أَوطانهم غرباء *

* * *

ومع انحسار ظلماتِ عصورِ التخلف ، بدأَت الظلالُ تنجاب عن أُفقِنا الادبي ، بعد أَن حَجبت عنا أَبا العلاء .

وسمعنا أَن المستشرقين شُغلوا بأَبي العلاء من مطلع القرن العشرين ، واحتفوا بتراثه ، فالتفتنا إليه بعد طولِ غفلةٍ وإهمال ، وأَثرى تراثُه دراستَنا الأدبية ، وما يزال سخيَّ العطاء .

* * *

الرســالة :

ورسالة الغفران ، وفيها النص المسرحي الذي نقدمه اليوم . قد أملاها أبو العلاء بمعرة النعمان ، حوالي عام ٤٢٤ هـ .

ردّاً على رسالة تلقاها من أديبٍ حلبي من معاصريه ، هو « ابن القارح ، علي بن منصور » (١) .

ومن ثَمَّ ، تأْخذ رسالةُ الغفران صورةَ رسالةٍ إخوانية من الرسائلِ الطوال التي تَجري مجرى الكتب المصنفة .

لكنها تستهل بمقدمة غير مأْلوفة ، يستطرد منها أبو العلاء ، إلى رحلةٍ خيالية في العالم الآخر ، يقود إليها ابنَ القارح ، ويوجِّه فيها خُطاه بين الجنة والجحيم ، ويُلقنه ما يقول وما يفعل .

قبل أن يبدأ ، بعد هذه الرحلة الطويلة ، في الردِّ على ما جاء في

(١) له ترجمة في معجم أدباء ياقوت . وارجع إلى الفصل الذي كتبته عنه في « الغفران : دراسة نقدية » .

رسالة ابن القارح ، ابتداءً من فقرتها الاولى بعد تحية الديباجة ، إلى آخر سطر من سطورها .

* * *

ورسالة الغفران ، من تراث أبي العلاء في عهدِ عزلته ، وفي صميم الشطر الثاني من رحلة حياته .

وكان يُودِّع حينذاك، العقد السادس من عمره ، ويستقبل السابع .

أي أنه أملى الرسالة بعد أن هُزِم في معركته مع الدنيا ، وانطوى على نفسه محزوناً يلتمس راحة اليأس ، فتعز عليه مثلما عَزَّت عليه راحةُ الأَمل .

وقد أنضجتْه الأَيام بتجاربها ومِحنها ، وكشفتْ له عن ضراوة أشواقِ بشريتِه . وجراحِه التي لم تندمل قط .

وببلوغِه ستين سنة ، كان قد قطع مراحلَ حياته الدنيا وأَشرف على العالم الآخر ، وطال تأَمله الحزين في مصير الإنسان .

ومن هذا التأَمل الطويل ، كانت رحلتهُ إلى عالمٍ آخَر صنعتْه له رؤاه وأَحلامُه ، ومخاوفُه وهواجسُه .

وفيها عَرَّى جِراحه الغائرة . ونفَّس عن أَشواقِه المكبوتة ، وهواجِسه المُلِحَّة .

وهذا كله ، مما لا يَخفى أمرْه على قارىء رسالته .

غير أن عالمه النفسي كان متأثراً كذلك بموقفه من الدنيا والناس، ورأيه في « ابن القارح » الذي أعطاه أبو العلاء الدورَ الرئيسي في مسرحيته ، فأَطَلَّ بنا عن طريقه ، على عالَمه الآخر ، وملءُ نفسِه تعبٌ من هذه الدنيا « رسَخَ في الأَعضاء » ، وظمأٌ لم يجد سبيلاً إلى رِي ، ورؤيةٌ ثاقبة لما تُخفي أَقنعة النفاقِ من خبثٍ ومَكرٍ وقبح ...

* * *

ورسالة الغفران لا سبيل إلى فهمها دون تدبُّر لرسالةِ ابن القارح التي نَعُدها مفتاحَ هذا الفهم ، إذ هي السبب القريبُ المباشر الذي دعا أَبا العلاء إلى إملاءِ رسالته ، فمن غيرِ المستطاع أَن نمضي في قراءَتها ، ما لم نقرأْ قبلها ومعها ، الرسالة التي كان يُملي ردَّه عليها (١) .

ويتبادر إلى الظن ، أَن حاجتَنا إلى « رسالة ابن القارح » ، لا تبدو مُلِحَّة في القسم الأَول من الغفران حيث الرحلةُ إلى العالم الآخر . بل يمكن أَن ننتظر حتى نفرغ من هذه الرحلة ، ويبدأَ أَبو العلاء — في القسم الثاني من الغفران — الردَّ على ما جاءَ في الرسالة التي تلقاها ، فلا بدَّ من فهم الردِّ بها ؛

لكن الذي لا شك فيه ، هو أَن ظِلَّ ابن القارح كان يغشى العالمَ الوجداني لأَبي العلاءِ منذ تأَهب لإملاءِ رسالةِ الغفران . وأَن صورةَ الرجل ظلَّت ماثلةً في خاطره . حتى فرغ من الإملاءِ .

---

(١) تجد نص « رسالة ابن القارح » محققاً ، مع « رسالة الغفران » في طبقات الذخائر ٢ : د .

ثم إن النصَّ المسرحي ، الذي يشغلنا هنا ، يقع في المقدمة والرحلة إلى العالم الآخر في القسم الأَول من الغفران . وابنُ القارح يمثل الدور الرئيسي بطلاً للمسرحية من أولِ مشهدٍ إلى آخر مشهد .

* * *

ابن القارح :

وإذا كنا في هذا المدخل إلى مسرحية الغفران ، قد أطلنا الحديثَ عن مؤلفها ، فالأَمرُ بالنسبة إلى بطلها مختلف : فليس يعنينا هنا أَن نستوعبَ ترجمةَ حياةِ ابن القارح ونستقصي أَقوالَ مؤرخيه فيه ، بقدر ما يعنينا أَن نعرفَ موقف أَبي العلاء منه ورأْيَه فيه . إذ مهما تكن حقيقة ابن القارح في نفسه ، وصورتهُ في كتب التراجم ، فالمهم أَن نعرف ملامح الصورة التي كانت ماثلةً في خاطر أَبي العلاءِ ، وهو يقدم بطلَ مسرحيته ، ويختار له الدورَ الذي يلائم شخصيتَه ، ويفرضه عليه من حيث لم يتوقع .

يكفي أَن نعرف أَن « ابن القارح : علي بن منصور الحلبي » أَديب معاصر لأَبي العلاء . وينسب إلى حلبَ بحكم مولده . على أَنه نزح منها مُطوِّفا بالبلاد يلتمس رزقَه من حِرفة الأَدب . وقد خدم « أَبا علي الفارسي » بالشام ودرس عليه اللغةَ ، ثم انقطع إلى خدمةِ « آل المغربي »

في القاهرة ، حين كانت لهم القيادةُ والرياسةُ والوزارةُ في الدولة الفاطمية . وبقي في خدمتهم إلى أن غدر بهم « الحاكمُ بأَمر الله الفاطمي » . فجحَدهم ابن القارح بأَبشع العقوق ، وتسلَّط عليهم بأَفحش الهجاء .

وكان « ابن القارح » قد أسرف على نفسه في الملذات ، فلما جاوز السبعين من عمره ، وهنت قواه ، واعتزم أَن يئوب إلى حلب التماسا للاستقرار والراحة في شيخوخته العالية [1] .

وفي هذا الوقت بالتحديد . بدا له أَن يُمهد لمقامه في حلب ، بالكتابة إلى أَديبها الأَكبر وعالِمها الحكيم .

* * *

والثابت تاريخياً ، أَنه لم يكن بين أَبي العلاء وابن القارح ، سبقُ تعارفٍ شخصي أَو لقاء ، قبل أَن يتبادلا رسالتيهما .

وكلتا الرسالتين ، تأْخذ شكل الرسائل الإخوانية الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة .

والعهدُ بمثل هذه الرسائل الإخوانية الطوال أَن تكون بين من تربطهم أَواصرُ مودةٍ وصحبة ، والذي بين أَبي العلاء وابن القارح ، يبدأُ أَوَّل ما يبدأُ بهاتين الرسالتين المطولتين .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١٥/٨٣ ط دار المأمون . وانظر « رسالة ابن القارح » مع رسالة الغفران ، ط الذخائر .

ونعرف من رسالة ابن القارح ، أنه أراد بها أن يعتذرَ إلى أبي العلاء ، عن ضياع رسالةٍ كان أحد أُدباء العصر « أبو الفرج الزهرجي » قد أرسلها إليه مع ابن القارح لمّا علم أنه في طريقه إلى حلب ، فسرق عديلٌ له ، رَحْلاً من رحاله ، وفيه الرسالةُ .

ونعرف أيضا أنه قصد بالكتابة إلى أبي العلاء ، أن يُسوغَ له موقفَه من « أبي القاسم بن المغربي » حين بلغه أن أبا العلاء ذكر هجاءه إياه .

* * *

ونفهم أن يحرص ابن القارح ، على أن يُزكي نفسه لدى حكيم المعرة وأديب حلب وعالم الشام ، فيطيل في سرد محفوظِه من اللغة والأخبار والشعر ، والإعلان عن براعته ، والتعريف بحياته ورحلاته وشيوخه .

وقد نفهم أيضا أن يجاريه أبو العلاء فيبهره بأماليه اللغوية والأدبية ، ويستدرك في الرد عليه ، ما فاته فيما عرض له في رسالته إلى أبي العلاء من قضايا تاريخية ومذهبية ، ونقدية وأدبية .

لكن الغريب حقا ، هو هذه المقدمةُ غير المألوفة التي افتتح بها رسالته إلى ابن القارح ، والرحلةُ العجيبة التي قاده فيها إلى العالم الآخر ، وفرَض عليه دورَ البطولة في مسرحية الغفران ، قبل أن يبدأ في الرد على أُولى فقرات رسالته !

وفيما عدا رسالة الغفران ، لا نذكر فيما قرأنا لأبي العلاء ، على طول صحبتنا له في آثاره ، ما يُشير إلى ابن القارح من قريب أو بعيد ، وإنما يأتي ذكرُه لأول مرة على لسان أبي العلاء ، فيما نقل ابن القارح نفسه في رسالته حيث يقول :

« بلغني عن مولاي الشيخ أدام الله تأييده ، أنه قال وقد ذُكِرتُ له : « أعرفه خبرا : هذا الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسين المغربي » فذلك منه - أدام الله عِزَّه - رائعٌ لي ؛ خوفاً من أن يَستَشِرَّ طَبْعي ، وأن يتصورَني بصورةِ مَنْ يضعُ الكُفرَ موضعَ الشكر » - ٥٥ [1]

ومنها نعلم أن ابنَ القارح جاءَ ذكرُه في مجلس أبي العلاء : فما زاد على أن قال :

« أعرفه خبرا - أي سماعا - : هذا الذي هجا أبا القاسم بن علي ابن الحسين المغربي » - ٥٥

فماذا تعني هذه العبارة التي اختارها أبو العلاء عنوانا على شخصية ابن القارح وصِفةً مميزة لصورته عنده ، فاكتفى بها في التعريف به ؟

إنها تعني بإيجاز : الشر والعقوق ، والغدر والنفاق !

فأبو القاسم ، هو الحسين بن علي بن الحسين ، الوزير الأديب الملقب بالكمال ذي الرياستين : الوزارة والكتابة .

---

(١) الأرقام هنا وفيما يلي من عبارات لابن القارح أو حديث عنه ، تشير إلى صفحاتها في رسالته ، مع (رسالة الغفران) ط ٥ ذخائر .

وأبوه : « أبو الحسن علي ، بن أبي عبد الله الحسين بن جوهر » قائد القواد في جيشِ الحاكم الفاطمي .

وجَد الأُسرة : « جوهر الصقلي » فاتح مصر وباني القاهرة والأزهر ، ومقيمُ الدعوة بالديار المصرية للعبيديين الذين حكموا باسم الفاطميين.

وقد عاش ابن القارح محسوباً على آل المغربي حين كانت الدنيا لهم ، يتقلب في نعمتهم ويشدو بفضلهم ومآثرهم . فلما دارت الدائرة عليهم وقتل « الحاكم الفاطمي » قائدَه أبا عبد الله الحسين بن جوهر سنة ٤٠١ هـ وتشرد بنوه في الآفاق ، دار ابنُ القارح مع الأَيام ، وتنكر لمن كانوا أولياءَ نعمته ، وأفحش في سبِّهم وهجائهم .

وما كان أبو العلاء يجهل ، حين ذُكِرَ له ابنُ القارح ، أنه أَديب حلبي ، خدم أبا علي الفارسي وآل المغربي ، لكن هجاءه أبا القاسم ، كان الصفةَ المميزة لشخصه والعنوانَ الدالَّ عليه ، والكلمةَ الجامعة التي تُغني أبا العلاءِ عن مزيد تعريفٍ بالرجل .

وقد صكت الكلمة سمعَ ابنِ القارح وهو يتهيأُ للإياب إلى حلب ، يحمل عبءَ نَيِّفٍ وسبعين عاماً من عمره (ص ٤٥) أمضاها في التنقل والتجوال ، وقد أنهكه العكوفُ على الملذات البهيمية (٦٣) وامتصت حرفةُ الأَدب حيويتَه .

ولم يُفته ما تعني كلمة أَبي العلاء فيه ، بل أَدرك من فورِه أَنه يستشرُّ طبعَه ويتصورُه بصورةِ مَن يضع الكفرَ موضع الشكر (٥٥) فأَشفق أن ينبو به المكانُ في حلب ، وفيها أَبو العلاء ملءَ القلوب

والأَسماع والأَبصار مهابةً وعلما ، وتقى وورعا .

وزيَّن له ذكاؤه العملي أَن يمهد لأَوبتِه . بهذه الرسالةِ يتملقُ فيها أَبا العلاء ، ويسخو في مدح علمه وفضله . ثم يبسُط عذرَه في هجاءِ أَبي القاسم وبغضِه إياه ، ويشكو إِليه غَدْرَ الأَصحاب وكيدَ الحسَّاد وأَفاعيلَ الزمن (٦٤ : ٦٥) استدرارا لعطفه ورحمته ، ويشتدُّ في الحملة على الملحدين تظاهرا بالغيرة على الدين ، حريصا على أَن يعرض في ثنايا ذلك كله . بضاعتَه من العلم والأَدب .

ووصلت الرسالةُ تَنْضَح نِفاقا وخبثا .

وزادت أَبا العلاء عِلما بكاتبها ، فكانت شاهداً صارخا على النفاق البغيضِ والرياء الرخيص .

* * *

ولعل أَقسى ما آلَمَ أَبا العلاء وهو يصغي إِلى رسالة ابن القارح ، إيغالُه في نهش جثةِ أَبي القاسم المغربي مَيِّتاً ، وتسويغُه هجاءَه إياه بقوله :

« وبُغضي له ، شَهِد اللهُ . حَيّاً وميتاً ، أَوجَبَه أخذُه محاريبَ الكعبةِ الذهبَ والفضة ، وضربُها دنانيرَ ودراهمَ سماها الكعبيةَ... وكم دمٍ سفك ، وحريم انتهك ، وحُرَّةٍ أَرمَلَ ، وصبيٍّ أَيتم .. » ٥٨ .

فأَين كانت تلك الغضبة للدين ، حين كان ابن القارح يملا جيوبه من الدنانير الكعبية ، ويرتع في خير مَنْ يعلم أَنه سفَكَ الدماء

وانتهك الحريمَ وأرمَلَ الحرائر وأيتمَ الصبية ؟

وهل كان شيء من تلك المآثم ، إن صدق ابنُ القارح ، إلا وآلُ المغربي في عِزِّ مجدِهم وسلطانهم ، وابنُ القارح يرتع في خيرِهم ويستدرُّ عطاياهم ؟

وأملى أبو العلاء ردَّه ، متلطفاً في السخرية بابن القارح ، فكانت مقدمةُ الغفران رمزاً لشخصيته في وجدانِ أَبي العلاء ، ثم كانت المسرحية التي أَلفها معبرةً عن ذاتِه ، كما كان أسلوب إخراجِها ملائما لشخصيةِ البطل .

حتى إذا فرغ ، بعد الرحلة بابن القارح إلى العالم الآخر ، للردِّ على رسالته ، ووصل إلى ما فيها من هجاءٍ فاحش لأَبي القاسم بعد موته ، علَّق عليه في جدّ وصرامة ، بقوله :

« وأَما صديقه الذي جذَب عند السبر – أي عابَ عند العداوة – فهو ، ابن القارح ، يعرف المثَل : « أَعْرِضْ عن ذي قبْر » إذا حجزَ دون الشخص ترابٌ ، فقد تقضَّت الآرابُ . من ليم في حياتِه ، استحق المعذرةَ في مماته .

« ومن غفرَ ذنبَ حَيٍّ وهو يُلحق به الأَذاةَ ، فكيف لا يغفر له بعد الميتة وقد عَدِمَ منه الشذاةَ ؟ وسلامٌ على رَمْسٍ من مُخالسٍ ، يُعدَلُ بألفِ تسليمةٍ في المجالس ... » .

المسرحية :

والمعادلة الصعبة في مسرحية الغفران ـ ولعلها عقدتُها ـ هي أن تعبر عن شخصيةِ مؤلفها ، وأن تلائم في الوقت نفسِه شخصيةَ بطلِها .

والشخصيتان على طرفي نقيض :

شكلاً وجوهراً ، وحياةً وخُلقاً وسلوكا .

وأَصعبُ منها ، أَن نميز في الغفران ما هو من ملامح شخصيةِ أَبي العلاء بكلِّ نُبْلِهِ وعفَّتِهِ ، وحرمانِه ومجاهدته .

وما هو من ملامح شخصيةِ ابن القارح ، بكلِّ شهوانيته ونفاقِه وخُبْثِه وزَيْفه ...

* * *

في هذه المسرحية ، يُطل أَبو العلاءِ من الدنيا على أخراه ، ويَغُذُّ السيرَ بتأَملاته إلى عالم بعيد يُفرِغُ فيه شُحنةَ همومِه وأَشواقه ، وهواجسه ومخاوفه .

وواضحٌ أَن عالمَه الآخر ، لا يمكن إلا أن يكونَ عالمَ أديبٍ لغويٍّ مُفكر ...

وأَن أشواق بشريته ، قد التمستْ تنفيساً ورِياً ، في رؤياه لعالَمه الآخر .

وأَن القيودَ التي شلَّتْ حركتَه نصفَ قرن ، جعلتْه يحلُم بكسرِها والتحرر منها ، فملأَ جَنَّته بالحركةِ والصوتِ والرقصِ والغناءِ . وقد تعنُفُ الحركةُ فتصير ضجيجاً وعِراكا وعَرْبَدةً ، ويعلو الصوتُ فيصير صياحاً وجَلَبة ومُنافَرة ...

ومن أَهل جنته من يخرج للنزهة والصيد والزيارة ، وفيها تقام المآدبُ الحافلة . وأَبو العلاءِ الذي ملَّ السكونَ وتعب من الكبْت ، هو الذي يريد لأَهل عالمه الآخر أَن ينفعلوا بالغضب والرضى ، والصدِّ والإقبال ، والمتعة والخيبةِ ؛ وأَن تجوز عليهم أَهواءُ البشرية وأَعراضُها ، مِن تشوُّفٍ وحنين وعَجبٍ ، وغرورٍ وعقوق وشماتة ، ونسيانٍ وغفلة .

ولا شك في أَن محنته هي التي اقترحت عليه « عملية التعويض » في الآخرة عن محن الدنيا ، فليس يكفيه أَن يصير الأَعشى أَحورَ ، والأَعمى بصيراً ، والهرمُ شاباً ، وإنما يُعوَّض الذي امتحن في الدنيا بعاهةٍ أَو بلوى ، تعويضاً لا يقترح مثلَه سوى ضرير مُبتلى محروم : فأَحَدُّ أَهل الجنة بصَراً هم الذين حُرِموا نعمةَ البصر في الدنيا . وأَجملُهم عيوناً « عورانُ قيس » .

وأَطيبُ نِسائها نَشْراً ، امرأَةٌ كانت في الدنيا تدعى « حمدونةَ

الحلبية » طلَّقها زوجُها ـ بائعُ السقَط ـ لرائحةٍ كَرِهها من فمها . وأَنصعُهن بياضاً أَمةٌ تدعى « توفيقَ السوداءَ » كانت تَخدُم في دارِ العلم ببغداد ...

وذلك كلُّه لأَبي العلاء ...

* * *

أما إسرافُه في حَشْدِ الْمُتَع الحِسِّية وتشخيصِ الشهواتِ واللذاتِ المادية ، فإلى جانبِ دلالته على نفسيةِ المحروم وأَثرِ القيود التي فرضَها على نفسِه في صومِه الطويل ، نُقدِّر أَن شهوانيةَ ابنِ القارح هي التي وجَّهت أَبا العلاءِ إلى أَن يحشُد له ما يعلم أَنه يُرضِي مِزاجَه ويُلائم هواه ...

ومن الملاحظ اللافتة ، أَن أَبا العلاءِ في تمثُّله لِعالَمه الآخر وإحضارِه إياه ، قد صرف عن مسرح الغفران شخوصَ أَحبابِه الذين تعلق بهم في حياتِه وأَنِسَ إليهم ، وحزِن لفراقِ الذين سبقوه منهم إلى القبور .

فهل شُغل عن رؤيا لقائهم ، بأَماليه اللغوية والأَدبية التي بقيت مشغلَةَ دنياه وأُخراه ؟

أَو إنه بتنحِّيه لابن القارح عن مسرحِ الغفران ، لم يجد لشخوصِ أَحبابه مكاناً عليه ؟

الذي أَطمئن إليه ، هو أَن أَبا العلاء حين جعلَ مسرحَ الغفران لابن القارح ، نحَّى عنه مَن لا شأْنَ لهم به . ولعله ضنَّ على أَهلِه

الصالحين بالظهورِ على مسرحٍ أَعَدَّه لهذا الثعبان الأسود . يُعطيك من ملْمَسِهِ الليِّنِ نعومةَ الحرير ، وفي لُعَابِه السمُّ الزعاف .

واللافتُ كذلك ، أن أبا العلاء لم يجعل في جنتِه مجالاً لنعمةِ الحب . وقد سمعناه في شبابه يشكو ظمأَه إليه [1] . فلماذا لم يُنفِّسْ في رؤياه ، عن مُعاناتِه الباهظة لوطأَةِ الحرمان من الحب ، كما فعل في (سقط الزند ، واللزوميات) ؟

في ظني أنه ، في هذا أيضاً ، ضنَّ على ابن القارح بهذه النعمة الكبرى وليس جديراً بها ولا مُيَسَّراً لها ، فاكتفى له باللذاتِ الحِسية والشهوات المشخَّصة التي تعلق بها في دنياه ، ولعله لا يتعلق بسواها في أُخراه .

ولعلنا نلمح كذلك ، ملامحَ « ابن القارح » في « روضة الحيات » بجنة الغفران : تروي الأَشعارَ والأَخبارَ ، ولإحداها فقهٌ بالقراءاتِ ، وتَظَلُّ لها مع ذلك طبيعتُها التي لا تؤتمن !

* * *

هذه لمحةٌ سريعة مما نميز في مسرحية الغفران مما هو من ملامح المؤلف ، وما هو من ملامح البطل .

أَما المقدمة ، التي جعلها أبو العلاء مدخَلا إلى الغفران ، ومهَّد بها

---

(١) راجع في ذلك ، ما قدمته من نجواه في الحب : « أبو العلاء المعري » ص ٤٩ وما بعدها — أعلام العرب .

لظهور الممثِّل البطل ، فلأَبي العلاء فيها شخصيةُ الأَديبِ اللغوي والمخرج المسرحي ،

ولابن القارح هذه الرموزُ الثعبانية السوداء التي تهيىءُ المسرحَ لظهوره ، وتحدد الملامحَ التي يتمثلُها أَبو العلاء لشخصيته .

ونحتاج هنا إلى وقفة قد تطول ، عند هذه المقدمة التي غاب سِرُّها عنا أَمداً ، ثم لما انكشف ، كانت هي التي وجَّهتْنا إلى النصِّ المسرحي في « رسالة الغفران » .

* * *

والمقدمةُ هي مفتَتَح الرسالة وديباجتها . وظاهرُ الأَمر فيها أَنها على طولها ، تحيةٌ إخوانية من أَبي العلاء لابن القارح ، يُعرِب فيها عن مودَّةٍ واشتياقٍ للقاءِ صاحبٍ حميم . أَو قد تبدو إملاءً من أَمالي أَبي العلاء اللغوية موضوعُه « القلب » تفنن فيه في عرض محفوظه من الأَلفاظ والأَشعار ، تفننَ اللاهي بها المتمكنِ منها القادرِ عليها . وهو يصطنع في أُسلوب عرضها فنَّ الإلغاز البديعي ، فيما اختار من أَلفاظ : الحماطة ، والحضب ، والأَسود . إذ يصف لابن القارح ما يجده في قلبه من حماطة الشوق إليه ، وما يُضمره حِضبُه من مَحبَّته ، وما يطويه أَسْوَدُه من إعظامه .

مُلْغِزاً عن حَبَّة القلب : بالحماطة ، وهي شجر تأْلفُه الحيات .

وبالحِضْبِ ، وهو الضخمُ من ذكور الحيات .

وملغزاً عن سويداءِ القلب بالأَسود ، وهو الحية العظيمة .

ومستطرداً في ثنايا ذلك كله ، حيثما تدعو أَدنى مناسبة من لفظ أَو معنى أَو شاهد ، إلى عرضِ المشتَركات اللغوية للحماطة والحضب والأسود ، وإيرادِ الأَشعار المفسرة لأَلغازه .

وأبو العلاء قد تولى بنفسه حلَّ الأَلغاز في مقدمته، بما يصرف الحماطة والحِضْب والأَسْوَد ، عن دلالاتِها المعجمية القريبةِ على شجرِ الحِماط الذي تألفه الحيات ، وعلى خبيثِ الثعابين والذكر الضخمِ من الحَيَّات ، إلى حبةِ القلب وسويدائه .

لكنه أَوغل في هذه المقدمة الثعبانية السوداء :

ففي الحماطة ، ذكر الناكِزةَ وهي ضربٌ من أَخبث الحيَّات ؛ والشجاعَ وهو أَيضاً ضربٌ من أَجرأ الحيات .

وفي الحضب ، أَشار إلى خَصائصه في التَلَوِّي والانقباض ، والظهور والاختفاء ما بين صيفٍ وشتاءٍ ، والتسلُّل بين الخِيف والجَبل ، والسُّمّ .

وفي الأَسودِ ، أملى فصلاً في السواد ، ذكر فيه الأَعلامَ من سُودان العرب وأَغربتها ، وذكر معهم الذين يدخلُ السوادُ في أَسمائهم : كالأَسود ، وأَبي الأَسود ، وسُوَيد ، وسَوْدة ، وسَوادة ، وأَسودان ...

* * *

وإلى عهدٍ قريب ، اكتفينا من فهم المقدمة بتحقيق أَلفاظها

وشواهدها وأَعلامها ، إلى جانب ما فسَّره أَبو العلاءِ من إلغازها .

وغَفَلْنا عن لُغزِها الأَكبر ، حتى التفتْنا إلى أَن مثلَ هذه المقدمة لا يمكن أَن تأْتي عبثاً . ولا من الهيِّن أَن نتصورَ أَديباً يردُّ على رسالة إخوانيةٍ تلقاها من أَحد أَبناءِ بلده ، فيلقاه بتحيةٍ متشحة بالسواد ، مشحونةٍ بأَنفاس الحَيَّات بمختلف أَسمائها وأَنواعها ، وحَماطتها وسُمها ، وتَلوِّيها وتقبضها ، وظهورها واختفائها .

كلا .. ليس هذا بمأْلوفٍ من التعبير عن المودة والاستهلال بالتحية ، ولا عهد لنا بمثله في تراث الأَدب العربي من الرسائل الإخوانية : القصارِ منها والطوالِ التي تجري مجرى الكتب المصنفة ، سواء .

ثم كان أن رجَعْنا النظرَ في مقدمة الغفران ، في ضوء ما فهمنا من شخصية ابنِ القارح ورسالته ورأْي أَبي العلاءِ فيه ، فانجلى اللغزُ الكبير .

لقد تمثل أَبو العلاء وهو يصغي إلى رسالة ابن القارح ، بما تنضح به من شَر وخبث ومداهنة ونفاق ورياء . الثعابينَ والحياتِ بتلونها وتلويها ونعومتِها السامة . فجاءَت تحيتُه الرمزية استهلالاً تلقائياً لرسالتِه إلى الرجل الذي قال فيه حين ذُكِر له :

« أَعرفه خبراً : هذا الذي هَجا أَبا القاسم المغربي » .

والوقوفُ عند غرابة التحية غير المأْلوفة [1] . هو الذي وجَّهنا ،

(١) في الطبعة الثالثة من كتابي « الغفران : دراسة نقدية » ط دار المعارف .

وقد عرفنا شخصيةَ ابن القارح ورأْيَ أَبي العلاءِ فيه ، إلى أَن نرجع النظر كذلك في رسالة الغفران . فأَعطتْنا النصَّ المسرحي منها ، تقومُ المقدمةُ فيه مقامَ المقدمة المسرحية ، وتؤدي الأَلفاظُ والعباراتُ والشواهدُ الشعرية ، ما يؤديه (الديكور) والموسيقى التصويرية التي تسبق العرضَ المسرحي في فَنِّه الحديث .

* * *

وبقيت كلمة لا بد منها عن :

الغفران والعقيدة الإسلامية

من حيث تُذكر الرسالةُ . في معرض الاتهام لعقيدة أَبي العلاءِ . ويُستشهَد بها لجرأَتِه على ما وُصِفَ بالتهكم على المعتقدات الإسلامية ، وحكمِه على مَصَايِرِ الشعراءِ في الآخرة ، مُوَزَّعين بين الجنة والنار .

وقد سبقت إشارة إلى أَن ما امتُحن به هذا الأَديبُ الحر الزاهد من تجريح عقيدته . قد تصدَّى له نفرٌ من محققي المؤرخين ، غضِبوا لهذا الافتراءِ على تقيٍّ وَرِع . نقي العقيدة والضمير .

ولكن ظِلَّ الاتهام استمر يلاحقه . فيحجبه عن أَجيال من أَبناءِ العربية ، لا يُراد لهم أَن يتأَثروا ببسالةِ مجاهدتِه . نضالاً عن كرامةِ عقله وضميره ، وأَمانةِ كلمته وشرفِ رسالته .

ورسالةُ الغفران، من أَهم الوثائق التي ذكرها متهموه في هذه القضية .

وردَّدت الأَقلامُ صدى هذا الاتهام . من قبل أَن يُنشر فينا نصٌ الرسالة ويقرأ :

فإلى القرن الثاني عشر الهجري . لم يكن المعروف عن « رسالة الغفران » يتجاوز كلماتٍ قصاراً ذكرها مؤرخوه العرب في ترجمته . وقد اقتصر بعضُهم على ذكرِها في ثَبَتِ مصنفاته . بين « رسائله الحِسان الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة » (١) .

وآخرون أَشاروا إليها في سياق الاستدلال بها . إما على « تمكُّنِ أَبي العلاء من الأَدب واطلاعِه على اللغة » (٢) .

وإما على ما فيها من « أَماراتٍ على سوءِ عقيدته وقُبح مذهبِه » ومن « مَزْدَكةٍ واستخفاف » (٣) .

وفي العصر الحديث ، مع اقتران ذكرها بالكوميديا الإلهية لدانتي ، لفت الدارسون العربيون إلى ما يريبهم فيها من « مغفرةٍ للشعراء الزنادقة . في قصةٍ جريئة خلَط فيها الجدَّ بالهزل ، وسَخِرَ من العقائد الإسلامية التي تتعلقُ بالحياة الآخرة » (٤) .

وردَّ المستشرق الإنجليزي « نيكلسون » « سمعْتَها السيئة » « إلى ما لا يُستطاع إنكارُه ، من أن أَبا العلاءِ صوّر جنة المؤمنين صالوناً فخماً

١) منهم : القفطي في « إنباه الرواة » وسبط ابن الجوزي في « مرآة الزمان » .
٢) منهم : الصفدي في « الغيث المسجم » والكلاعي في « إحكام صنعة الكلام » .
٣) ياقوت في معجم الأدباء ، والذهبي في « تاريخ الإسلام » .
٤) دائرة المعارف الإسلامية : أبو العلاء .

عامراً ببوهيميين خالدين ، ولكنهم غير خُلُقيين »[1]

وتكلم آخرون منهم عما فيها « من تهكُّم خفيٍّ لاذع ، وصبغة ساخرة لادينية »[2]

على حين راب الدارسين العربَ ، ما أورده فيها – وبخاصة في القسم الثاني ، حيث الردُّ على رسالة ابن القارح – من أَخبارِ الملحدة وأَشعارِ الزنادقة ، مستلذاً بها لقبح مذهبه كما وَهِمَ « ياقوت » أَو متظاهراً بلعنتهم تقيةً ورياءً ، كما وَهِمَ الأُستاذ « الدكتور طه حسين» « وكم ضَحَّى من زنادقة العباسيين بضحايا ، ليعلن أَنه مسلم . ولكن هذا الكيدَ كلَّه لم يزد الناس إلا علماً به »[3] .

وسبق لي ، في دراستي للغفران ، أَن ناقشت كل هاتيك الدعاوي المُرسَلة التي لا يؤيدها شاهدٌ من نصِّ الغفران المحقق ، وليس في جنة أَبي العلاءِ أَيُّ شاعرٍ ملحد أَو زنديق ، بل فيها شعراء من الصحابة ، والذين لم تروَ فيهم كلمة جارحة لعقيدتهم . والجاهليون منهم قد سوَّغ الغفرانَ لهم ، أَنْ كان الشاعر منهم نصرانياً أَو متحنِّفاً **قبل المبعث** ، أَو رُوِيَ له شعرٌ في رجاءِ الله وخشيتِه .

باستثناءِ « الأَعشى » الذي احتال أَبو العلاءِ على إدخالِه جنته ،

---

(١) J.R.A.S. 1902/77

(٢) M.A. Placious : Islam and the Divine Comedy ed. London 1929, p. 55.

وآدم متز : الحضارة العربية : ٢/١١ من الترجمة العربية للدكتور أبو ريده .

(٣) تجديد ذكرى أبي العلاء : ١٣٢ معارف .

بـأَن استشفع له بـخروجِه يريد لقاءَ النبي صلى الله عليه وسلم وإنشاده قصيدتَه الدالية ، فصَدَّته قريش وحبُّه للخمر . وقد حرَّم عليه أَبو العلاءِ خمرَ الجنة ، لذاك . كما استشفع له بقصيدةٍ من شعرِه الجاهلي ، يؤمن فيها بالله ويُصدِّق بالبعثِ والحساب .

و « الحطيئة » الذي شفع له ، عن رِقَّة دينه ، صدقه في بيتٍ قاله . ولم يقبل أَبو العلاءِ مع هذه الشفاعة ، أَن يضعَه مع الصفوة من المؤمنين ، بل نبذَه في أَطراف جنته [1] .

وكل شعراءِ جنة أَبي العلاءِ وجحيمه ، من الجاهلية وصدرِ الإسلام . وليس معهم من الأُمويين غير « الأَخطلِ » ومن العباسيين غير « بشار » وكلاهما في الدركِ الأَسفلِ من جحيم الغفران .

بخلاف أَعلام اللغويين والرواة الذين أَدخلهم جنتَه ليناقشهم ، وهم بحكم الواقع التاريخي لم يظهروا إلا ابتداءً من العصر العباسي الأَول . ويَعرِفُ لهم تاريخنا جهادَهم في حفظِ تُراث الفصحى ، وتأْصيلَهم لعلوم العربية ، لغة الإسلام ديناً ودولة .

ثم إن أَبا العلاء لم يُطِل الحديثَ عن الزنادقة في القسم الثاني من رسالته ، استلذاذاً بإنشاد كُفرياتهم كما وَهِمَ « ياقوت » ولا اشتد في لعنتهم مداراة لمستورٍ من عقيدته كما ذهب الأُستاذ الدكتور طه حسين ، وإنما كان يرد على ما في رسالة ابن القارح من أَخبار الزنادقة وأَشعارهم.

---

١) تفصيل ذلك كله ، في كتابي (الغفران : دراسة نقدية) ، ١٥٦ ط المعارف .

ولا أعلم في أبي العلاءِ شبهةَ رياءٍ يدعوه إلى لعن الزنادقة « ليُظهر أنه مسلم » بل الذي أعلمه أنه باع الدنيا ورضِيَ أن يتعرض للأذى والإعنات والتجريح . ولا يتخلى عن الالتزام بمبادئه وصدقِ كلمته .

* * *

والذي أُضيفه هنا - مما لم يسبق لي التنبه إليه في دراستي لهذه القضية ، هو أن **الخطأ الأكبر** في كلِّ ما قيل أو يقال في اتهام رسالة الغفران بالجرأة على المعتقدات الإسلامية والاستخفاف بها ،

هو في أخذ **العالم الآخر في الغفران** ، على مَحمَل تصويرِ **الحياة الآخِرَة** في عقيدتنا الإسلامية .

وما هو في الواقع ، إلا رؤيا فنية يطل بها أبو العلاءِ على **عالمه الخاص ، كما تمثله في تأملاته وأحلامه** ، وكما صاغتْه له هواجسُه وأشواقه ومخاوفه ومواجعه ، مع ما كان يُحسه من ظِلٍّ شخصية ابن القارح على وجدانه ، وما يتردد في سمعه من صدى صوت هذا الرجل ، في رسالتهِ إليه .

* * *

ومع اتقاءِ هذا الخطأ الأكبر ، يمكن في سهولة ويسر ، أن نرد الشبهاتِ الواردة على الغفران :

ففي جنة أبي العلاءِ وجحيمه ملامحُ واضحةٌ من الجنة والجحيم في القرآن . ولا مجال للتردد في القول بأنه أخذ أكثرَ مادته لعالمه

الاخر ، من القرآن الكريم . وهو في كلِّ ما أَخذ من ذلك ، يُقدم معه الشواهدَ القرآنية ، للذي في جنتهِ من أَنهار من ماءٍ غير آسن ، وأَنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأَنهار من خمر لذة للشاربين ، وأَنهار من عسل مصفى ، « يطوف عليهم ولدانٌ مخَلَّدون * بأَكوابٍ وأَباريقَ وكأْسٍ من مَعين * لا يُصدَّعُون عنها ولا ينزفون * وفَاكِهةٍ مما يتخَيَّرون * ولحمِ طيرٍ مما يَشتهون * وحورٍ عينٍ * كأَمثالِ اللؤلؤِ المكنونِ » (١)

وقد سمَّى دارَ العذاب في عالمه الآخر بأَسمائها القرآنية : النار ، والجحيم ، وجهنم ، وسقر . كما استعمل: السعير ، والزبانية ، والأَغلال ، والسلاسل ، ومقامع الحديد .

ولكن هذه الملامحَ لا تعدو أَن تكون مادةً سخية ، صاغ منها أَبوالعلاءِ مع غيرِها من مواد ، عالَمَه الآخرَ . وما كان يستطيع ، وما ينبغي له ، أَن يتمثل جنتَه ونارَه ، بمعزلٍ عما رسخ في عقيدته ووجدانه وثقافته ، من الصورةِ القرآنية للحياةِ الآخرة . وما يمكن لأَي مسلم ، صادقِ الدين أَو مفرِّط فيه ، أَن يصورَ لنفسِه عالمَه الآخر ، وليس فيه ملامحُ من تصوُّرِه الديني للحياة الآخرة .

ثم إن في الغفران كذلك ، ملامحَ لا تفوتنا من المرويات الإِسلامية: في الحديث ، وفي كتب التفسير ؛ ومواد أُخرى مما عرفتْه البيئة الإِسلامية من تراثها الشعري والأُسطوري ، على ما بيَّنا ذلك كله في

(١) الآيات من سورة الواقعة ، ١٧ : ٢٣ .

دراستنا للغفران [1] .

ومن كل أُولئك صاغ عالَمه الآخرَ صياغةً فريدة تجعله علائياً خالصاً ، لا مكانَ فيه لغيرِ الشعراءِ واللغويين ، ومَنْ دعت إليهم ضرورةٌ من سياق العَرْض . وأخرجه على النَّمطِ الذي أملتْه ظروفه الخاصة ، فما نقل من المواد التي اجتمعت له مشهداً أو لفظاً . ولا نحَّى منها ما نحى ، إلا متأَثراً بعالمه النفسي .

والذي حشد أَبو العلاء لابن القارح من لذاتٍ مادية ومُتَع مشَخَّصة ، ليس كذلك مَظِنَّةَ اتهام . ولعلنا لو عَرَضْنا أَجرأ ما في الغفران من مشاهدِ اللذة ، على أقوال المفسرين في تأْويلِ آياتِ نعيم الجنة ، لبدا أبو العلاءِ غيرَ مسرف ولا جامح الخيال . ويكفي أَن نقرأَ تفسيرهم لآيات :

(ق) : « لهم ما يشاءُون فيها ولدينا مزيد »

والواقعة : « إِنا أَنشأْناهن إِنشاءً * فجعلنَاهن أَبكارا * عُرُباً أَترابا * لأَصحاب اليمين .

والرحمن : « حُورٌ مقصوراتٌ في الخيام * لم يَطْمِثهن إنسٌ قبلهم ولا جان » ..

وآيات الدهر : « وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرا * متكئين فيها

(١) تفصيل ذلك كله في الفصل الخاص بمادة الغفران ، من كتابي « الغفران : دراسة نقدية » ط المعارف بالقاهرة .

على الأَرائكِ لا يَرون فيها شمسا ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالُها وذُلِّلت قطوفُها تذليلا * ويُطاف عليهم بآنيةٍ من فِضَّةٍ وأكواب كانت قواريرا * قواريرَ من فضةٍ قَدَّروها تقديرا * ويُسْقَون فيها كأْساً كان مزاجُها زنجبيلا * عيناً فيها تُسمَّى سَلسبيلا * ويطوف عليهم وِلدانٌ مخَلَّدون إذا رأيتَهم حسبتَهم لؤلؤاً منثوراً » .

أقول : يكفي أن نقرأ تفسيرهم لهذه الآيات ، لنرى أن أبا العلاءِ لم يجاوز المدى فيما أتاح لابن القارح من نعيمِ جنته في الغفران.

وما يغلبُ عليها من حِسٍّ السخرية والتهكم ، ليس سخريةً بالمعتقدات الدينية ، وإنما السخريةُ كلُّها بابن القارح ، والتهكمُ كلُّه عليه .

* * *

وتبقى شبهة الجرأة على تقرير مصايرِ الشعراءِ في الغفران ، ما بين الجنة والنار . ولا أحدَ يدري غير الله مصيرَهم في الآخرة ، سبحانه ، يغفرُ لمن يشاءُ ويعذبُ من يشاء .

وأبو العلاءِ نفسه ، قد احتاط في ذلك من التباسِ عالَمه الآخرِ بالحياة الآخرة ، واحترس من الظنِّ به أنه حَكَم على هذا الشاعرِ أو ذاك ، بأنه من أهلِ الجنة أو أهل النار .

ذلك إذ يبدأُ الرحلةَ بابن القارح إلى عالـمِه الآخر فيعقِدُها **بمشيئةِ الله** .

قال بعد المقدمة ، يُعلق على ما افتتح به ابن القارح رسالته عن تمجيدِ اللهِ والثناء عليه :

« فقد غُرِس لمولاي الشيخ الجليل ، **إن شاء اللهُ** ، بذلك الثناء ، شجرٌ في الجنة لذيذُ اجتنَاء ... »

وقد يفوت علينا هذا الاحتراسُ ، ونحملُه على مثلِ ما تجري به ألسنتنا وأقلامُنا من ذِكرِ المشيئة الإلهية ، تلقائياً دونَ قصدٍ أو تنبه . لكن أبا العلاءِ تابَع إملاءَ رسالتِه **متنبهاً إلى قَصْدِ المشيئة الإلهية** ، فنسمعه بعد انتهاءِ الرحلة وتفرغه للردِّ على رسالة ابن القارح ، يعرض لقضيةِ اتهام « بشارِ بن برد » بالزندقة ، فتتداعى أفكارُه ويذكرُ أنه جاءَ ببشار مع الشعراء المعذبين في جحيم الغفران [1] . ومن ثم يستدرك فيقول متَحَرِّجاً :

« واللهُ العالمُ بحقيقةِ الأَمر . ولا أَحكُم عليه – يعني : بشار بن برد – بأَنه من أَهل النار ، وإنما ذكرتُ ما ذكرتُ – في جحيم الغفران – لأَني عقدتُه بمشيئة الله ، وإن اللهَ لحَليمٌ وَهَّاب » [2] .

فلفَتَ بذلك إلى أنه ما أَدخل بشاراً في جحيم الغفران ، إلا في رؤيا وجدانية وتصورٍ أَدبي . أَما في السياق التاريخي لقضيةِ اتهام بشارٍ بالزندقة ، فحسبُه أَن يقول : « واللهُ العالم بحقيقة الأَمر » .

---

(١) رسالة الغفران : ص ٣١٠ ط ٥ ذخائر .

(٢) رسالة الغفران ٤٣٢ ومعه (الغفران) ص ١٦٦ ط ٣ المعارف ونيكلسون في J.R.A.S. ص ١٩٠٢/٧٧ .

وكان هذا الاحتراسُ من أبي العلاءِ كافياً لأن نتقي الخلطَ بين عالَمه الآخرِ وبين الحياةِ الآخرة ، لولا أننا قلما نعطي قراءةَ النصوص حقَّها من الدقة المنهجية .

وفيما نقلنا من حديثه عن « بشار » الحدُّ الفاصلُ بين عالمٍ آخر في رؤيا أديبٍ ضرير محروم ، وبين ما غلَب على فهم الدارسين والنقادِ ، من أنه يُصور الحياةَ الآخرة ، ويقررُ مصايرَ شعراء ، يعلم الله وحدَه مآلهم يومَ القيامة .

ولا بد من أن نَكُف تماماً عن هذا الخلْط بين جنةِ أبي العلاء وجحيمه في الغفران ، وبين الجنةِ والجحيم في عقيدتنا الإسلامية .

وإذا كان فينا من يجد حَرَجا في تصوير أبي العلاءِ لعالَمِه الآخر ، فلنذكر أن تراثنا الديني حافلٌ بمروياتٍ عن أحلامٍ ورُؤى للحياة الآخرة . ولم نسمع أن أحدا أنكر هذا الاقتحامَ لعالم الغيب ، والجرأة على لقاءِ ناسٍ في جنةِ النعيم أو في نار الله الموقدة .

والقياس مع الفارق :

فأصحابُ الرؤى يُرسلون الحديثَ عن رؤاهم دونَ احتراز ، وكأنها تتعلق بالحياة الآخرةِ على حقيقتِها الدينية .

على حين يعرضُ أبو العلاء رؤياه لعالَمه الآخر ، وقد عقدَ فيها الأمر كله **بمشيئة الله** ، وصرَّح بأنه على وَجْهِ التمني والتصوُّر ، إذ يقول وهو يمضي بابن القارح إلى الجنة ، في أول مشهد : « **وكأني**

به ، إذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة . وقد اصطفى له ندامى من أُدباءِ الفردوس ... »

* * *

هل لي أن أَلفِت كذلك إلى مَلحَظٍ يتصل بالكوميديا الإلهية التي ترتبط في الأَدب العالمي المقارن ، برسالة الغفران ؟

إن كوميديا دانتي ، على ما في اسمها من جَفْوة قد تجرح الحسَّ المؤمن ، قد باركها رجالُ الدين المسيحي وترنم بها القسُّس والرهبان ، ورآها بعض النقاد المسيحيين « شعراً تعليمياً أخلاقيا يطلع الإنسان على الآثار البشعة للخطيئة ويُرشده إلى خيرِ الدنيا والآخرة »[1] .

فما بالهم قد اتهموا رسالةَ الغفران وما دخل جنتَها شاعرٌ إلا سئل بم غُفِرَ له ، ومن هنا أَخذَتِ اسمَها ؟

وفَرْقٌ بعيدٌ بين أن تَحمل الرحلة الوجدانية إلى العالم الآخر اسمَ « رسالة الغفران » وبين أن تحمل اسم « الكوميديا الإلهية »

(١) والترجمة لأستاذنا أمين الخولي

Labbarine : Lo Stile Italiano.

مسرحية الغفران

في ثلاثة فصول

من تأليف وإخراج : أبي العلاء المعري

٣٦٣ : ٤٤٩ هـ

- إيضاح
- المقدمة المسرحية
- النص المسرحي

النص المسرحي ، يقع في القسم الأَول من « رسالة الغفران » بعد مقدمةٍ تؤدي ما يؤديه « الديكور والموسيقى التصويرية » في المسرح الحديث .

وقد أَشرنا من قبل ، إلى هذه المقدمة الثعبانية السوداء ، بما فيها من أَسماء الحيات : الناكزة ، والشجاع ، والحضب ، والأَسود . ومن خصائصها : الكمون في شجر الحماط ، والتقبض والتلوي ، والسم ، والخفاء والظهور بين شتاء وصيف . والتسلل بين مهاوي الجبال وشقوقها . وما جمع أبو العلاء فيها ، من مشتركات لغوية للسواد .

تمهيدا لظهور ابن القارح .

والإِعلانُ عنه فيها غيرُ صريح ولا مباشر . بل يؤديه الحديث عن الحيَّات والسواد أداءً رمزيا .

ولا تدخل هذه المقدمةُ المسرحية في النص ، ولكنها تؤدي عملَها

الجوهري في إعدادِ المسرح تهيئةً لظهورِ ابنِ القارح الذي يلعبُ الدور الرئيسي من أَولِ مشهدٍ إلى نهاية المسرحية .

وتمضي مشاهدُ المسرحية في فصولها الثلاثة : الجنة ، والجحيم ، ثم عودة إلى الجنة . وأبو العلاء هو الذي يقوم بإخراج هذه المشاهد كلها ، والإعدادِ لها ، وتقديم الأَشخاص الذين يظهرون في كل مشهد ، إلى جانب انفرادِه بالتأْليف والصياغةِ والحِوار .

من هنا ، يظل أَبو العلاءِ معنا طوالَ عَرْضِ المسرحية ، لا يظهر على المسرح ، وإن سُمع صوته بين مشهد وآخر ، يرسمُ لنا المناظرَ ويُوجِّه إلى الإعداد ، ويُقدم الأَشخاص .

كما يُسمع صوتُه حين تدعو الضرورة إلى إيضاحِ شيءٍ أَو التعريف بشخصٍ .

وفي كل هذا ، يَأْتي الإعدادُ والإخراج والعرضُ ، بنصِّ كلماتِ أَبي العلاءِ في الغفران ، وأُسلوبِه وحوارِه .

وإذ صَحِبتُ أَبا العلاءِ طويلا فيما وصل إلينا من تراثه ، واشتغلتُ برسالة الغفران توثيقا وتحقيقاً ودراسة وتدريسا ، أَبحت لنفسي — فيما نقلت من مشاهدها ، نماذجَ ومُثُلا — أَن أُضيف إضاءاتٍ هامشية ، لما أُقدِّرُ الحاجةَ إليه ، بما أَفهم من شخصيةِ المؤلف ، وما أَعرف من خصائصِ أُسلوبه ، وعالَمه النفسي .

مع تحديدِ هذه الإضافاتِ بأَقواس مربعة تميزُها عن مادة المسرحية في أَصل نصِّها المحقَّق .

كما أَبحت لنفسي الاستغناءَ عن بعضِ الشروح والاستطرادات التي أَرى العرضَ المسرحي في غِنى عنها ؛ أَو التصرف أَحيانا ، على وجهِ التضمين أَو الاختصار ، في عباراتِ أَبي العلاءِ التمهيدية لمشاهدِ الغفران .

فيما عدا هذا ، أَترك لأَبي العلاءِ أَن يُخرج مشاهدَ مسرحيته ، ويتولى عرضَها ، ويختار أَشخاصها ويُوجِّه حركاتهم ، ويلقنهم ما يريد لهم أَن يقولوه أَو يفعلوه .

ونقدر أَن نص الغفران ، من تراث القرن الخامس الهجري . وليس من اليسير على قرائه اليوم أَن يفهموه ، إلا مَن كان منهم على علم بتاريخ العربية والإسلام ، مع درايةٍ لغوية عالية .

ومن هنا تبدو الحاجةُ إلى شروح هامشية ، لما هو مَظِنة الغموضِ أَو الالتباس .

ولنذكر أَن الغفرانَ مسرحُ أَديبٍ مفكر وعالم لغوي . قد اتخذ من هذه الرحلة سبيلا إلى لقاءِ الشعراءِ واللغويين والرواة . ليناقشهم فيما كان يشغله ويشغل عصرَه وبيئتَه من قضايا الشعر واللغة .

الزمان : القرن الخامس الهجري ، حوالي سنة ٤٢٤ هـ .

المكان : دار بسيطة في معرة النعمان ، عارية من الأثاث إلا من حصير لباد .

أبو العلاء ، ضرير في الستين من عمره ، ومن حوله تلاميذه ، يتحدثون عن « ابن القارح » ورسالتِه ، قبل أن يبدأَ أبو العلاء في إملاءِ ردِّه عليها ، فتبدأ المسرحية .

ومن خلال الإملاء ، الذي يأْخذ حيناً صيغةَ الإخراج ، وحينا صيغةَ التلقين ، يتتابعُ ظهورُ الأَشخاص .

الفصل الأول

في جنّة الغفران

ابن القارح : أديب حلبي من عصر أبي العلاء ، جاوز السبعين من عمره ، أتعبتْه حرفة الأَدب ، وأنهكه الإسراف في الملذات .

المبرد ، ابن دريد ، يونس بن حبيب ، الأَصمعي أبو عبيدة ، الأَخفش الأَوسط ، سيبويه ، الكسائي .	ندامى الفردوس : لغويون من العصر العباسي الأَول
الأَعشى ، زهير بن أَبي سلمى ، أَبو ذؤيب الهذلي نابغة بني ذبيان .	شعراء جاهليون ومخضرمون .
النابغة الجعدي ، لبيد بن ربيعة ، حسان بن ثابت .	من الشعراء الصحابة

عوران قيس : تميم بن أُبَيٍّ بن مُقبل ، وعمرو بن أَحمر ، والشماخ ، والراعي النميري ، وحميد ابن ثور الهلالي.	شعراء إسلاميون
الخليل بن أَحمد ، ابن درستويه ، النضر بن شميل ، المازني ، الأَصمعي.	لغويون من العصر العباسي الأَول .

في أَطراف الجنة :

أَبو هدرش : شاعر من الجن المؤمنين .

الحطيئة : شاعر مخضرم .

* * *

وِلدان ، حوريات ، ملائكة ، مغنون ومغنيات ، طهاة وسقاة .

المقدمة المسرحية :

(*) [أبو العلاء ، يمهد لظهور ابن القارح على المسرح ، بالرمز واللون : الحيات ، والسواد] .

« قد علم الجبر [1] الذي نَسبَ إليه جبريل ، وهو في كلٍّ الخيرات سبيل ، أن في مسكني حَمَاطةً ، ما كانت قطُّ أَفانيةً ، ولا الناكزةُ بها غانية[2]. تثمر من مودة مولاي الشيخ الجليل ـ كبَتَ الله عدوَّه ، وأدام روَاحَه إلى الفضلِ وغُدُوَّه ـ ما لو حملته العاديةُ من الشجرِ ، لدنَتْ إلى الأَرض غصونُها ، وأَذيل من تلك الشجرةِ مَصُونها .

والحماطة ضربٌ من الشجر ، يقال لها إذا كانت رطبةً : أَفانية ، فإذا يبِستْ فهي حماطة .

(*) الأقواس المربعة ، تميز ما ليس من أصل النص .

(١) الجبر : الله .

(٢) الحماطة : شجر يابس تألفه الحيات ، ويقال له قبل يبسه : الأفاني . ويلغز أبو العلاء بالحماطة عن حبة القلب . والناكزة : من أخبث الحيات . وغانية : مقيمة .

وتوصف الحماطةُ بإلْف الحيَّاتِ لها . قال الشاعر :

أُتيح لها . وكـان أخـا عيـال
شُجَاعٌ (١) في الحماطة مُسْتَكِـنٌ

وإن الحماطةَ التي في مَقري . لَتَجِد من الشوق حَماطة . والحماطةُ حُرقة القلب . فأما الحماطة المبدوءُ بها - في الرسالة - فهي حَبَّةُ القلب .

« وإن في طِمْرَيَّ لحضبا (٢) . ما هو بساكنٍ في الشقاب ، ولا بمتشرف على النقاب (٣) . ما ظهر في شتاءٍ ولا صيف . ولا مرَّ بجبلٍ ولا خيف . يُضمر من محبةِ مولاي الشيخ الجليل . ما لا تضمِرُه للولدِ أمّ ، أكان سُمُّها يُذكر أم فُقِد عندها السمُّ (٤) .

وليس هذا الحضبُ مُجانسا للذي عناه الراجز :

* وقد تطوَّيْتُ انطواءَ الحضب *

وقد علم - أدام الله جمالَ البراعةِ بِسَلامته - أنه يقال لحبةِ القلب : حضب .

---

(١) الشجاع : ضرب من أجرأ الحيات ، دقيق لطيف .

(٢) الطمران : مثنى طمر ، وهو الكساء البالي . يعني بهما : ثوبه وجسمه . والحضب هنا : حبة القلب ، وهو أيضاً : الضخم من ذكور الحيات .

(٣) الشقاب : المهاوي بين الجبال ، والنقاب : شقوق فيها .

(٤) يعني : سواء أكانت الأم من ذوات السم ، أم من غيرها .

وأن في منزلي لأَسودَ [(١)] . هو أعزُّ عليَّ من عنترةَ على زبيبة ، وأكرمُ عندي من السُّلَيكِ عند السُّلَكةِ ، وأَحَقُّ بإيثاري من خُفاف السُّلَمي بخبايا نَدْبَة [(٢)] .

أُعظِمُه أكثر من إعظام لخمٍ « الأَسودَ بن المنذر » وكندةَ « الأَسودَ ابن معديكرب » وبني نهشل « الأَسودَ بن يعفر » [(٣)] ولا يبرح مولَعاً بذكرِه كإيلاعِ « سحيم » بعُميرة . و « نصيبٍ » مولى أُمية ، بسعداه [(٤)].

وقد كان مثله [(٥)] مع « الأَسود بن زمعة ، والأَسود بن عبد يغوث » . ومع أَسودانَ الذي هو نبهان بن عمرو بن غوث بن طيىء . ومع « أبي الأَسود » الذي ذكره امرؤ القيس في قوله :

وذلــك من خبــرٍ جاءَنــي ونُبِّئتُه عن أَبي الأَسود

وما فارقه [(٦)] « أبو الأَسود الدؤلي » في عُمره طرفةَ عين ، في حال الراحة ولا الأَيْن . وقارنَ « سويدَ بن أَبي كاهل » يرِدُ به على المناهل .

---

(١) يعني : سويداء القلب . والأسود أيضاً : ثعبان سام .

(٢) عنترة بن زبيبة العبسي ، والسليك بن السلكة ، وخفاف بن ندبة السلمي : شعراء جاهليون ، من سودان العرب .

(٣) الأساودة الثلاثة ، من سادات العرب في الجاهلية .

(٤) سحيم : عبد بني الحسحاس ، ونصيب : شاعران إسلاميان من الموالي . وعميرة وسلمى : حبيبتاهما .

(٥) أي مثل هذا الأسود الذي في منزلي . بمعنى القلب .
والأسود بن زمعة ، قرشي مشرك من عصر المبعث . والأسود بن عبد يغوث ، قرشي من مسلمة يوم الفتح .

(٦) الضمير للأسود ، بمعنى القلب ، لم يفارق أبا الأسود الدؤلي طول عمره ، وهو شاعر من التابعين . وسويد بن أبي كاهل ، شاعر جاهلي من بني يشكر . وسويد بن الصامت : من سادة الأوس وشعرائهم ، مخضرم . وسويد بن صميع ، المرثدي : من شعراء الحماسة .

وحالَفَ « سويدَ بنَ الصامتِ » ما بين المبتهج والشامت . وساعف « سويدَ بن صميع » في أيام الضيق والريع ....

وكان [1] يألف فراش « سودةَ بنتِ زمعة بن قيس » امرأة النبي صلى الله عليه وسلم . ودخل الجدَثَ مع « سوادة بن عدي ... » [2] .

* * *

[إلى هنا تنتهي خلاصة المقدمة المسرحية ، بلفظ أبي العلاء، بعد أن هيأت لظهور ابن القارح ، برموز الحيات ، والإغراق في السواد] .

---

(١) أي : وكان الأسود ، بمعنى القلب .

(٢) هو ابن عدي بن زيد ، الشاعر الجاهلي المشهور .

المشهدُ الأولُ
مجلِسُ النَّدامَى
في جنَّةِ الغُفران

[أبوالعلاء يملي ، موجها إلى إخراج المشهد وإعداده]

« وقد وصلت الرسالةُ التي بَحرُها بالحِكَم مسجور ، مَن قرأها لا شكَّ مأْجور . ومِثْلُها شفَعَ ونَفَعَ ، وقرَّب عندَ اللهِ ورَفَع . وأَلفيتُها مفْتَتَحة بتمجيدٍ ، صدَرَ عن بليغ مجيد . وفي قدرةِ ربِّنا جلَّتْ عَظَمتُه ، أَنْ يَجْعلَ كلَّ حَرْفٍ منها شبحَ نورٍ ، لا يمتزجُ بمقالِ الزور . يستغفرُ لمن أَنشأَها إلى يومِ الدين .....

ولعله ، سبحانه ، قد نصَب لِسُطورِها المنجيةِ من اللهب ، معاريجَ من الفضةِ والذهب . تعرُجُ بها الملائكة من الأَرض إلى السماءِ ، بدليلِ الآية : « إليه يَصعَدُ الكَلِمُ الطيبُ والعمَلُ الصالحُ يرفعه »

وهذه الكلمة الطيبة ، كأَنها المعنية بقوله تعالى :

« ألم تَرَ كيف ضربَ اللهُ مَثَلًا كلمةً طيبة كشجرةٍ طيبة . أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السماء ، تؤتِي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ..»

وفي تلك السطورِ كَلِمٌ كثير . كلُّه عند الباري – تقَدَّسَ – أثيرٌ . فتمد غرسَ لمولاي الشيخِ الجليل ، إن شاءَ اللهُ ، بذلك الثناء ، شجرٌ في الجنةِ لذيذُ اجتناء...

والوِلْدانُ المخَلَّدون في ظلال تلك الشجر قيامٌ وقعود . يقولون . والله القادرُ على كلِّ عزيز : نحن وهذه الشجرُ صِلةٌ من اللهِ لِعليِّ بنِ منصور . نُخْبَأُ له إلى نفخِ الصور .

وتجري في أُصولِ ذلك الشجر ، أنهارٌ من ماءٍ يَمدُّها الكوثرُ في كلِّ أوان ، ومن اللبنِ والرحيقِ المختومِ . ويعمد إليها المغترفُ بكئوس من العسْجَدِ ، وأَباريقَ من الزبرجد . ويعارضُ تلك المدامةَ أنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفَّى ، وذلك كله بدليل قوله تعالى :

« مَثَلُ الجنةِ التي وُعِدَ المتقون ، فيها أَنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ وأَنهارٌ من لبنٍ لم يتغيرْ طَعمُه ، وأَنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربينَ وأَنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفى ، ولهم فيها من كلِّ الثمرات » .

وكأَني به ، أَدام اللهُ الجمال ببقائه ، إذا استحق

تلكَ الرتبةَ بيقين التوبة [يظهرُ ابنُ القارح على المسرح] وقد اصطفى له ندامى من الفردوس : كأَخي ثمالةَ ، وأَخي دَوْس . ويونسَ بن حبيب الضبّيِّ ، وابنِ مَسْعَدَةَ المجاشِعي . فهم كما جاءَ في الكتاب العزيز :

« ونَزَعْنا ما في صُدورِهم من غِلٍ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين . لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم منها بمُخْرَجِين»

وأبو عبيدةَ يُذاكرهم بوقائعِ العرب ومقاتلِ الفرسان . والأَصمعيُّ ينشدهم ما أَحسن قائلهُ كلَّ الإحسان . [يتتابع ظهور الندامى ، عند ذكر أسمائهم] .

وتَهَشُّ نفوسُهم للعب فيقذفون تلك الآنيةَ في أنهارِ الرحيق .

ابن القارح : آه لمصرعِ الأَعشى ميمون ! ولقد ودِدت أنه ما صدَّته قريش لما توجَّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما ذكرتُه الساعةَ لما تقارعت هذه الانيةُ . بقوله :

وشَمُولٍ تحسَبُ العينُ إذا صفِّقَتْ جُنْدَعَها نَوْرَ الذُّبَحْ (١)
مثل ريحِ المِسكِ ذاكٍ رِيحُها صَبَّها الساقي إذا قيل تَوَحْ (٢)

(١) الشمول : الخمر الباردة . والجندعة : نفاخة فوق الماء . والذبح : الجزر البري ، ولونه أحمر .
(٢) فعل أمر من توحى ، بمعنى أسرع .

من زِقـــاقِ التَّجْــرِ في باطِيـــةٍ   جَوْنةٍ حَارِية ذاتِ رَوَحْ [1]
ذاتِ غَــوْرٍ مـــا تُبالــي يومَها   غَرف الإبريقُ منهــا والقدَحْ
وإذا مــا الــراحُ فيهــا أَزبَدتْ   أَفَلَ الإزبادُ عنها فمَصَـــحْ [2]
وإذا مَكُّوكُهـــا صادفـــه   جانباهـــا . كــرَّ فيها فسبَحْ [3]
وإذا غاضَـــتْ رَفَعْنـــا زِقَّنـــا   طلقَ الأَوداجِ فيها فانفسحْ [4]

ولو انه أَسلمَ ، لجاز أَن يكون بيننا في هذا المجلس ، فينشدَنا غريب الأَوزان ، مما نظم في دار الأَحزان ... ...

(١) التجر : اسم جمع تاجر ، والعرب تسمي بائع الخمر تاجراً . وحارية : نسبة سماعية إلى الحيرة ، وقد اشتهرت بالخمر . والروح : السعة .
(٢) أزبدت : علاها الزبد ، الرغوة . مصح : ولى وذهب .
(٣) المكوك : طاس يشرب فيه .
(٤) الطلق : الحر الطليق ، والأوداج : السبل .



مع الأعشى

[أبو العلاء ، ممهداً] :

ثم إنه أدام الله تمكينَه ، يخطر له حديثٌ ، شيء كان يسمى النزهةَ في الدار الفانية . فيركبُ نجيبا من نجب الجنة ، ويسير ومعه شيءٌ من طعامِ الخلود . فإذا رأى نَجِيبَه يُملِعُ بين كُثْبانِ العنبر . رفَع صوتَه متمثلا بقول البكري .

ابن القارح [على فرسه يترنم بشعر الأعشى] :

ليت شعري متى تَخُبُّ بنا النـــا قة نحوَ العُذَيبِ فالصيبونِ (١)

محْقِبـــا زُكْــرةً وخُبـــزَ رُقــاقٍ وحِبَاقاً ، وقطعــةً من نُونِ (٢)

---

(١) العذيب والصيبون ، موضعان .

(٢) أحقب الشيء : علقه في وسطه . الزكرة : وعاء ، من جلد ، للخمر . والحباق : نبات طيب الرائحة . والنون : السمك .

هاتف : [يقول من حيث لا يراه ابن القارح] :

ـ أتشعر أَيها العبدُ المغفور له ، لمن هذا الشعر ؟

ابن القارح : نعم ، حدَّثنا أَهلُ ثِقتنا عن آهلِ ثقتهم ، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى يصلوه بأَبي عمرو بن العلاء فيرويه لهم عن أَشياخِ العرب ، أن هذا الشعرَ لميمونِ بن قيسِ بنِ جندل، ...

الهاتفُ : أَنا ذلك الرجلُ . مَنَّ اللهُ عليَّ بعد ما صِرتُ من جهنمَ على شَفيرٍ ، ويئستُ من المغفرةِ والتكفير .

[يظهر الأعشى]

يلتفت إليه الشيخ هاشّا مرتاحاً . فإذا هو بشاب قد صار عَشَاه معروفاً . وانحناءُ ظهره قواماً موصوفاً

ابن القارح : أَخبِرْني كيف كان خلاصُك من النار . وسلامتُك من قبيحِ الشنار ؟

الأَعشـــى : سحبتْني الزبانيةُ إلى سَقَر . فرأَيتُ رجلا في عَرَصاتِ القيامة يتلألأ وجهُه تلألُؤَ القمر . والناسُ يَهتفون به من كل أَوب : « يا محمد يا محمد . الشفاعةَ الشفاعةَ . نَمُتُّ بكذا . ونَمتُّ بكذا » .

فصرختُ في أَيدي الزبانية : يا محمد . أَغثني فإن لي بك حُرمةً . فقال [عليه الصلاة والسلام] :

«يا عليُّ . بادِره فانظر ما حُرمتُه» . فجاءَني عليُّ بنُ أبي طالب وأنا أُعتَلُ كي أُلقَى في الدرَكِ الأَسفلِ من النار ، فزجرَهم عني وقال : ما حرمتُك ؟

فقلت : أنا القائل :

أَلا أَيهذا السائل أَين يَمَّمْــــتْ ... فإن لها في أَهلِ يثربَ موعِدا
فآليتُ لا أَرثي لهـا من كَلالــةٍ ... ولا من حَفىً ، حتى تلاقي محمدا
متى ما تنَاخِي عند بابِ ابنِ هاشم ... تُراحي ، وتَلْقَيْ من فواضِلِه نَدَا
أَجِدَّك لم تسمع وَصـاةَ محمـدٍ ... نبيِّ الإلهِ حين أَوصَى وأَشهَدا
إذا أَنت لم ترحل بزادٍ من التقى ... وأَبصرتَ بعد الموتِ مَن قد تزودا
ندِمتَ على أن لا تكون كمثلِـه ... وأَنك لم تُرصِدْ لما كان أَرْصَدا
فإيـاك والمَيْتــاتِ لا تقربَنَّها ... ولا تـأْخذَنْ سهماً حديدا لتقصدا
ولا تقربَنَّ جـارةً إن سِرَّهـــا ... عليك حرامٌ ، فانكِحَنْ أَو تـأَبَّدا
نبيٌّ يرى ما لا يرون ، وذكـرُه ... أَغار لعمري في البلادِ وأَنجدا

وقلتُ لعلي : وقد كنت أَومن باللهِ وبالحساب ، وأُصدقُ بالبعث ، وأنا في الجاهليةِ الجهلاءِ . فمن ذلك قولي :

فمـا أَيبليٌّ عـلى هيكـلٍ ... بناه وصلَّبَ فيه وصارا (١)
يُراوِحُ من صلوات المليـكِ ... طورا سُجودا وطوراً جؤارا
بأَعظمَ منك تُقىً في الحسابِ ... إذا النَّسَماتُ نَفضْنَ الغُبَارا

(١) الأيبلي : الراهب . صلب : عمل الصليب .

فذهب « عليٌّ » إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله ، هذا أَعشى قيس ، قد رُوِي مدحُه فيك ، وشهد أنك نبيٌّ مُرسَل . فقال : « هلا جاءَ في الدارِ السابقة ؟ » فقال عليّ : قد جاءَ ، ولكنْ صدَّتْه قريشٌ وحبُّه للخمرِ .

فشفَع لي ، فأُدخِلتُ الجنةَ على أن لا أَشربَ فيها خَمْرا . فقرَّتْ عيناي بذلك ، وإن لي منادِحَ في العسلِ وماءِ الحيوان – اللبن – وكذلك مَن لم يَتبْ عن الخمرِ في الدارِ الساخرة ، لم يُسْقَها في الآخِرَةِ .

مشهد

مع زهير بن أبي سلمى

وينظر الشيخ [ابن القارح] في رياض الجنة فيرى قصرين منيفين ، فيقول في نفسه : لأبلغن هذين القصرين فأسأل لمن هما ؟ فإذا قرب إليهما ، رأى على أحدهما مكتوبا : « هذا القصر لزهير بن أبي سلمى المزني » وعلى الآخر : « هذا القصر لعبيد بن الأبرص الأسدي » .

ابن القارح [يكلم نفسه مستعجباً] :

- هذان ماتا في الجاهلية ، ولكن رحمةَ ربّنا وسِعَت كلَّ شيء ، وسوف ألتمس لقاءَ هذين الرجلين فأسألهما بم غُفِرَ لهما .

فيبتدىء بزهير [يظهر زهير على باب قصره]

فيجده شابا كالزهرةِ الجَنِيَّةِ ، كأنه ما لبسَ جلبابَ

هَرَمٍ ، ولا شكا من البرَم ، وكأَنه لم يقلْ في الميمية :

سئمت تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ
ثمانينَ حولاً ، لا أَبا لَـكَ يسأَمِ

ابن القارح لزهير : جيرِ جيرِ ، أَنت أَبو كعبٍ وبُجير ؟

زهير : نعم

ابن القارح : بم غُفِرَ لك وقد كنتَ في زمانِ الفَتْرةِ والناسُ هَمَلٌ لا يَحسُنُ منهم العمل ؟

زهير : كانت نفسي من الباطلِ نَفُورا ، فصادفت مَلِكا غفورا . وكنتُ مؤمنا بالله العظيم . ورأَيتُ فيما يرى النائمُ حَبْلاً نزل من السماءِ ، مَن تعلَّق به من سُكان الأَرضِ سَلِم . فعلِمتُ أَنه أَمرٌ من أَمرِ الله ، فأَوصيتُ بَنِيَّ وقلتُ لهم عند الموت : إن قام قائم يدعوكم إلى عبادةِ اللهِ فأَطيعوه . ولو أَدركتُ محمدا لكنتُ أَولَ المؤمنين . وقلتُ في الميمية ، والجاهلية على السِكنَة [1] ، والسفَهُ ضاربٌ بالجران :

فلا تكتمنَّ اللهَ مـا في نفوسِكم
ليخفَى ، ومهما يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ
يؤخَّرْ فيوضعْ في كتاب فيدَّخرْ
ليوم الحسابِ ، أَو يعجَّلْ فينقَمِ

---

(١) السكنة : الحال . يقال : تركتهم على سكناتهم ، أي على أحوالهم التي كانوا عليها .

ابن القارح : ألستَ القائل :

وقد أَغدو علـى ثُبَةٍ كـرام   نشاوَى واجِدين لمـا نَشاءُ
يَجرُّون البُرودَ وقد تمشَّـتْ   حُمَيا الكأْسِ فيهم والغناءُ

أَفأُطلقت لك الخمرُ كغيرِك من أَصحابِ الخلودِ ؟ أَم حُرِّمَتْ عليك مثلَما حرِمتْ على أَعشى قيس ؟

زهير : إن أَخا بكرٍ أَدرك محمدا فوجَبَتْ عليه الحجه . وهلكت أنا والخمرُ كغيرِها من الأَشياءِ ، يشربُها أَتباع الأَنبياء ، فلا حجة عليَّ .

يدعوه الشيخ إلى المنادمةِ ، فيجده من ظرافِ الندماءِ . فيسأَله عن أَخبارِ القدماء

ابن القارح : وقد رأَى مع الساقي باطيةً من الزمردِ . فيها الرحيق المختومُ ممزوجا بِزَنجبيل ، وماءٍ من سلسبيل :

– أَين هذه الباطية من التي ذكرها « السرَوِيُّ » فقال [1] :

ولنـا باطيـةٌ مملـــوءَةٌ   جَوْنة ، يتبعَهـا بَرذِينُهـا
فإذا مـا حارَدَتْ أَو بَكأَتْ   فُكَّ عن خاتَمِ أُخرى طِينُها

* * *

(١) البيتان لعدي بن زيد ، والسروي نسبة إلى السراة ، وهي في أرض بني تميم ، و « عدي » منهم .
الجونة : السوداء . والبرذين : إناء من قشر الطلع ، يشرب فيه . حاردت : من حراد الناقة إذا قل لبنها . وبكؤت : نضبت وقلت .

ثم ينصرف إلى عبيد [وقد ظهر على باب قصر
فإذا هو قد أُعطِيَ بقاءَ التأْييد .

ابن القارح : السلامُ عليك يا أَخا بني أَسد .

عبيد : وعليك السلامُ . لعلك تريد أَن تسأَلني بم غُفِر لي ؟

ابن القارح : أَجل ، وإن في ذلك لعَجَبا ، أَأَلفَيْتَ حُكما للمغفرةِ موجِبا ، ولم يكن عن الرحمةِ مُحجبا ؟

عبيد : أُخبِرُك أَني دخلت الهاوية ، وكنتُ قلت في أَيام الحياة :

مَن يسأَلِ الناسَ يَحرِمــوه وسائــل اللهِ لا يخيــبُ

وسار هذا البيت في آفاقِ البلاد فلم يَزل يُنشَد ويَخِفُّ عني العذابُ حتى أُطلقت من القيودِ والأَصفاد . ثم كرِّر إلى أَن شملتْني الرحمةُ ببركةِ ذلك البيت .

ابن القارح ، وقد طمع في سلامةِ كثيرٍ من الشعراء :

– أَلكَ عِلمٌ بعدي بن زيد العبادي ؟

عبيد ، [مشيراً بيده إلى منزل هناك] :

– هذا منزله قريباً منك .

[يظهر عدي على باب منزله . ويدنو منه ابن القارح حتى يقف عليه فيقول] :

ابن القارح : كيف كانت سلامتك على الصراطِ ، ومَخلَصك من بعدِ الإفراط ؟

عدي :إني كنت على دينِ المسيح ، ومَن كان من أتباعِ الأنبياءِ قبلَ أن يُبعثَ محمد فلا بأسَ عليه ، وإنما التبعةُ على من سَجَد للأصنام .

ابن القارح :يا أبا سَوَادة ، ألا تنشدني « الصادية » فإنها بديعةٌ من أشعارِ العرب ؟

عدي :يترنم منشدا :

أبلغْ خليلي عبدَ هندٍ فلا زلتَ قريباً من سَوادِ الخصوصْ

... ...

غيِّبتَ عني عبدَ في ساعة الشر وجُنبتَ أوان العويصْ

لا تَنسَيَنْ ذكري على لذةِ الـ كأسِ وطوفٍ بالخذوفِ النَّحُوصْ[1]

إنك ذو عهدٍ وذو مصدَقٍ مخالفا هَدْيَ الكذوبِ اللمُوصْ

يا عبد هل تذكرني ساعةً في موكبٍ ، أو رائداً للقنيصْ

قد يُدرك المبطئُ من حظِّه والخيرُ قد يسبقُ جهدَ الحريصْ[2]

فلا يَزلْ صدرُك في ريبةٍ يذكر مني تلَفي أو خلوص

يا نفسُ أبقِي واتَّقِي شَتْمَ ذي الأعراضِ إن الحلمَ ما إنْ يَنوص [3]

يا ليتَ شعري وآنَ ذو عَجَّةٍ متى أرى شَرْباً حواليَ أَصِيص [4]

---

(١) الخذوف : الأتان الوحشية السمينة . والنحوص : الحائل التي لم تلقح . ويعني بالطوف بها ، الاحتيال عليها للصيد .

(٢) يسبقه : أي يفوته .

(٣) ينوص : يذهب .

(٤) وان ذو عجة : وأنا ذو صوت عال . ولأبي العلاء تعليق على : « وان » يأتي في الحوار هنا . والأصيص : نصف الجرة ، أو الخابية ، وهو أصل الدن .

بيت جلوفٍ باردٍ ظِلُّه ... فيه ظِباءٌ ، ودَوَاخِيلُ خُوصْ [1]

والربْرَبُ المكفوفُ أردانُه ... يَمشِي رُوَيداً كَتَوقِّي الرَّهِيصْ [2]

ينفح من أَردانِه المسكُ والـ ... ـعنبرُ والغَلوَى ولُبْنَى قَفُوصْ [3]

والمُشرِف المشمولُ نُسقى به ... أَخضرَ مطموثاً بماءِ الخريصْ [4]

ذلك خيرٌ من فُيوجٍ على الـ ... ـباب وقَيْدينِ وغلٍّ قروصْ [5]

ابن القارح : أَحسنتَ واللهِ أَحسنتَ . وقد عمل أَديبٌ من أُدباءِ الإِسلام قصيدةً على هذاالوزنِ ، وهو المعروف بأَبي بكر ابنِ دريد . قال :

يَسعدُ ذو الجَدِّ ويشقَى الحريصْ ... ليس لخلقٍ عن قضاءٍ مَحيصْ

ويقول فيها :

أَينَ ملوك الأَرضِ من حِمْيَرٍ ... أَكرمُ من نُصَّتْ إِليهم قُلُوصْ

جَيْفَرُ الوهابِ أَوْدَى بِه ... دهرٌ على هدمِ المعالي حَريصْ

إِلا أَنكَ يا أَبا سوادةَ أَحرزتَ السبْقَ .

وما كنت أَختارُ لك أَن تقولَ :

---

(١) الجلوف : جمع جلف وهو الدن الضخم . والدواخيل جمع دوخلة ، وهي سقيفة من خوص .

(٢) الربرب : الفتى كالظبي . المكفوف : بديباج . الرهيص : الذي أصابته رهصة فهو يمشي وئيدا .

(٣) الغلوى : الغالية ، طيب معروف . وقفوص : بلد بالشام يجلب منه العود .

(٤) المشرف : إناء للشرب . المشمول : المطيب . المطموث : الممسوس . والخريص : البارد ، وشبه حوض للماء .

(٥) الفيوج : جمع فيج ، حارس السجن . الغل : طوق من حديد أو جلد . والقروص : من القرص وهو الغمز المؤلم .

* يا ليتَ شِعري وأنَ ذو عَجَّةٍ *

لأَنك لا تخلو من أَحدِ أَمرين : إما أَن تكون قد وصلتَ همزةَ القطع وذلك رديء ، ويزيد ما فعلتَ من إسقاط الهمزة بُعْداً . أَنك حذفتَ الأَلف التي بعد النون ، [من : أنا] فإذا حذفتَ الهمزةَ من أَول الكلمة ، بقيتْ على حرفٍ واحد . وذلك بها إخلال .

وإما أَن تكونَ حققتَ الهمزة فجعلتها بينَ بينَ . ثم اجترأْت على تصييرِها أَلفا خالصة . وحسبُك بهذا نَقْضاً للعادة .

ولو قلت :

* يا ليت شعري أنا ذو عَجَّةٍ *

فحذفتَ الواو ، لكان عندي أَحسنَ وأَشْبَهَ .

عَدي : إنما قلتُ كما سمعتُ أَهلَ زماني يقولون ، وحدثَتُ لكم في الإسلام أَشياءُ ليس لنا بها علم .

ابن القارح : لا أَراك تفهم ما أُريده من الأَغراض ، ولقد هَمَمْتُ أَن أَسأَلك عن بيتِك الذي استشهَد به « سيبويه » وهو قولك :

أَرَواحٌ مودع أَم بكورْ أَنتَ فانظرْ لأَيِّ حالٍ تَصِير

فإنه يزعمُ أَن « أَنت » يجوز أَن يرتفعَ بفعلٍ مُضمَرٍ

يفَسِّره قولك : فانظر . وأنا أَستبعدُ هذا المذهبَ . ولا أَظنك أَردتَه .

عدي : دعني من هذه الأَباطيل . ولكني كنتُ في الدار الفانية صاحبَ قنص . ولعله قد بلغَكَ قولي :

ولقد أَغـدو بِطِرفٍ زَانَـهُ وَجْهُ مَنزوفٍ ، وخَدٌّ كالمِسَنّ

القصيدة [1]

وقولي في القافيَّة :

ومَجُودٍ قد اسجهـرَّ تناويرَ كلونِ العُهونِ في الأَعْلاقِ

القصيدة [2]

فهل لك أَن تركب فَرَسينِ من خيلِ الجنةِ ، فنبعثَهما على صِيرانها [3] ، وخِيطان نعامِها ، وأَسرابِ ظِبائها ، وعاناتِ حُمُرِها ؟ فإن للقنيصِ لذةً قد نهضتُ لك بها .

ابن القارح : إنما أَنا صاحبُ قَلَمٍ ولم أَكن صاحبَ خيلٍ ، ولا ممن يسحبُ طويلَ الذيلِ . وزرتُك إلى منزلك مهنئاً بسلامتِك

(١) القصيدة : في الغفران منها ثلاثة عشر بيتا .
الطرف : الفرس الكريم . المنزوف : الذي نزف دمه، ويستحسن من ألوان الخيل، والمسن : حجر يسن به أو عليه .
(٢) في الغفران من هذه القافية ، أحد عشر بيتاً.
المجود : الروض جاده المطر . اسجهر : نور وتوقد حسناً بألوان الزهر . العهون : الصوف المصبوغ . الأعلاق : الجراب .
(٣) جمع صوار ، وهو قطيع البقر .

من الجحيم وتنعمك بعفوِ الرحيم . وما يؤمنني إذا ركبتُ طِرفا زَعِلا رتَع في رياضِ الجنةِ فآض مُستَسْعِلا (١) وأنا كما قال القائل :

لم يركبوا الخيلَ إلا بعد ما كَبِروا
فهم ثِقالٌ على أكْنافِها عُنُفُ

أَن يلحقَني ما لحق صاحبَ المتجردة لمَّا حُمِلَ على اليحْموم . وقد بلغك ما لقي ولْدُ زهير . وكذلك ولدُك علقمةُ لمَّا رَكِبَ للصيدِ . فأَصبَح كجدِّه زيْد (٢) .

ويجوز إن يَقذِفَني السابح – من خيل الجنة – على صخورِ زمُرُّد ، فيكسر لي عَضُدا أَو ساقاً ، فأَصير ضحكةً في أهلِ الجنان .

عدي . مبتسما : ويحك ! أَما علمتَ أَن الجنة لا يُرهَبُ لديها السقَمُ ، ولا تنزل بِسَكِنِها النِقَمُ ؟

[يخرجان في رحلة صيد]

(١) الطرف الزعل : الفرس النشيط . آض : صار . واستسعل : صار كالسعلاة ، حدة ونشاطا.
(٢) انظر مصرع « جلم : صاحب المتجردة » حين حمله النعمان على ركوب فرسه اليحموم . وسالم ابن زهير ، الذي عثرت به فرسه فدقت عنقه ، وعلقمة بن عدي بن زيد ، وقد خرج للصيد فلقي مصرعه ، في شروح « رسالة الغفران » بهامش ص ١٩٦ ذخائر ط ٥ .

مشهد

مع أبي ذؤيب الهذلي

[أبو العلاء ممهداً] :

وينصرف الشيخ ، ابن القارح ، وصاحبُه عدي ابن زيد ، فإذا هما بِرَجُلٍ يحتلبُ ناقةً في إناءٍ من ذهب.

ابن القارح وعدي ، معاً : مَن الرجلُ ؟

الرجل : أبو ذؤيب الهذلي .

ابن القارح وعدي : حُيِيتَ وسَعِدتَ ، لا شَقِيتَ في عيشِك ولا بعدت . أتحتلبُ مع أنهارِ لبن ؟ كأن ذلك من الغبن !

أبو ذؤيب : لا بأْس ، إنما خطر لي ذلك مثلما خطر لكما القنيصُ . وإني ذكرت قولي في الدهرِ الأول :

وإن حديثاً منكِ لو تعلمينه جَنَى النحلِ في ألبانِ عُوذٍ مَطَافلِ
مَطافيلَ أبكارٍ حَديث نِتاجُها تُشَابُ بماءٍ مثلِ ماءِ المفاصلِ

فقيَّضَ اللهُ بقدرتِه لي هذه الناقةَ عائِذاً مُطْفِلا . وكان بالنعم متكفلا . فقمتُ أَحتلِبُ على العادة . وأُريدُ أن أَشوبَ ذلك بضربِ نَحْل ...

فإذا امتلأَ إناؤه من اللبن . مزجه بعسلٍ

اجتناه من خليّةٍ من الجوهر .

أَبو ذؤيب . لابن القارح وعدي بن زيد : أَلا تشربان ؟

يجرعان منه جُرَعاً : في لذةٍ

عَدِيٌّ . يتلو الآية :

« الحمد للهِ الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءَت رُسلُ ربِّنا بالحقِّ ونودوا أَنْ تلكم الجنة أُورِثتموها بما كنتم تعملون » .

ابن القارح لعدي : جئتَ بشيئين في شعرك ، وددت، أنك لم تأْت بهما ، أَحَدهما قولك :

فصافَ يُفرِّي جلَّه عن سَراتِه يَبُذُّ الرِهانَ فارهاً متتابِعاً

والآخر قولك :

فليتَ دفعتَ الهمَّ عني ساعةً فنُمْسي على ما خيَّلتْ ناعميْ بَالِ

عدي . بلهجته العبادية [1] :

(١) في اللهجة العبادية ، تنطق الجيم كافا :
قوله : « يا مكبور ، لقد رزقت ما يكب أن يشغلك »
أي : يا مجبور ... ما يجب ..

يا مكبورُ ، لقد رُزقتَ ما يَكِبُ أَن يَشغلَك عن القريض. إنما ينبغي أَن تكونَ كما قيل لك : « كُلُوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » .

ابن القارح : إنني سأَلتُ ربي ـ عزّ سلطانه . أَلا يحرمَني في الجنةِ تلذذاً بـأَدبي الذي كنتُ أَتلذذُ به في عاجلتي . فأَجابني إلى ذلك « وله الحمدُ في السماواتِ والأَرضِ وعشِيّاً وحين تُظهرون » .

* * *



مع النابغتين ، ثم مجلس منادمة .

[أبو العلاء ممهداً] :

يمضي – ابن القارح ومعه عدي – في نزهته بشابين يتحادثان ، كلٌّ واحدٍ منهما على باب قصيرٍ من درٍّ .

ابن القارح [مسلماً عليها] :

– مَن أَنتما رحِمَكما الله ، وقد فَعَلَ ؟

الشابان [معاً] :

– نحن النابغتان : نابغة بني جعدة ، ونابغة بني ذبيان .

ابن القارح ، للذبياني :

– أمّا نابغةُ بني جعدة فقد استوجَب ما هو فيه ، من النعيم ، بالحنيفيةِ . وأَما أَنتَ يا أَبا أُمامة ، فلا أَدري ما جِهتك ؟

النابغة الذبياني : إني كنت مُقِرّاً باللهِ . وحججت البيتَ في الجاهلية . ألم تسمع قولي :

فلا لَعَمْرُ الذي قد زُرْته حِجَجاً
وما هُريق على الأَنصابِ من جَسَدِ

وقولي :

حلفت فلم أترك لنفسِكَ رِيبــةً
وهلْ يأْثَمَنْ ذو إمَّةٍ وهو طائع [1]
بِمُصطحباتٍ من لَصَــافٍ وثَبْرةٍ
يَزرْنَ إلالاً سَيْرُهُــنَّ تَدافُــعُ

ولم أُدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم . فتقومَ الحُجةُ عليَّ بخلافِه . وإن اللهَ تقدستْ أسماؤه . عزَّ مَلِكاً وجَلَّ . يغفِرُ ما عظمَ بما قَلَّ .

ابن القارح . لعدي والنابغتين :

– يا أَبا سوادة . ويا أبا أُمامة . ويا أبا ليلى . اجعلوها ساعةَ منادمة . فإن من قولِ شيخنا العِبادي [ويلتفت إلى أبي سوادة . عدي بن زيد] :

أيهــا القلبُ تَعلَّــلْ بـــدَدَنْ
إن هَمِّي في سَماعٍ وأَذَنْ
وشرابٍ خُسْروانـــــيٍّ إذا
ذاقه الشيخ تَغَنَّى وارجَحَنْ [2]

---

(1) الإمة : الشرعة والدين . لصاف وثبرة : ماءان في ديار ضبة . إلال : جبل بمكة .

(2) الددن : اللهو واللعب . الأذن : الاستماع . ارجحن : مال واهتز .

وقال :

وسماعٍ يَــأْذَنْ الشيخُ لــه   وحَديثٍ مثلِ ماذيٍّ مُشَــار

فكيف لنا بأَبي بصير ؟

فلا تتم الكلمةُ . إلا وأبو بصير . الأَعشى .
قد خَمَسَهم – اي صار خامسهم – فيسبحون
لله ويُقدسونه ويحمَدونه على أَنْ جَمَعَ بينهم .

ابن القارح . يتلو الآية : « وهو على جَمْعِهم إذا يَشاءُ قدير » .

فإذا أكلوا من طيباتِ الجنةِ . وشربوا
من شرابها ، [دار الحديث]

ابن القارح . للنابغة :

ـ يا أبا أمامة . إنك لحَصيفُ الرأْي لبيب . فكيف
حسَّنَ لك لُبُّك أن تقول للنعمانِ بن المنذر :

زَعَمَ الهُمامُ بــأَنَّ فاها بــاردٌ   عَذْبٌ . إذا ما ذقتَه قلتَ ازددِ
زعمِ الهمامُ . ولم أَذُقْه . بأَنه   يُشْفَى ببردِ لِثاتِها العَطِشُ الصَّدِي

ثم استمر بك القول . حتى أنكره عليك خاصةٌ وعامة ؟

النابغة الذبياني . بذكاءٍ وفهم :

ـ لقد ظلمني مَنْ عاب عليَّ . ولو أنصفَ لَعَلِمَ أنني
احترزتُ أَشدَّ احتراز . وذلك أَن النعمان كان مُستهتراً

بتلك المرأة ، فأَمرَني أن أَذكرَها في شِعري . فأَدَرْتُ ذلك في خَلَدي فقلتُ : إن وصفْتُها وصفاً مطلقاً ، جاز أَن يكون بغيرِها معلقاً . وخَشِيتُ أَن أَذكرَ اسمَها في النظمِ فلا يكون ذلك موافقاً للملك ، لأَن الملوكَ يأْنَفون من تسميةِ نسائهم ، فرأَيتُ أَن أُسندَ الصفةَ إليه فأَقول :

* زعمَ الهمامُ * إذ كنتُ لو تركتُ ذكرَه ، لظنَّ السامعُ أَن صِفتي على المشاهدة . والأَبياتُ التي جاءَتْ بعدُ ، داخلةٌ في وصفِ الهمام . فمَن تأَمَّلَ المعنى وجدَه غيرَ مخْتَلٍّ . وكيف تُنشدون :

* وإذا نظرت رأَيت أَقْمرَ مُشْرِقاً *

وما بعده ؟

ابن القارح : ننشد : * وإذا نظرتَ . وإذا لمستَ ، وإذا طعنتَ ، وإذا نزعتَ * ... (١) على الخِطابِ .

الذبياني : قد يسوغُ هذا ، ولكنَّ الأَجودَ أَن تجعلوه إخباراً عن المتكلم . لأَن قولي : * زعمَ الهمامُ * يؤدي معنى قولِنا : * قال الهمام * فهذا أَسلمُ ، إذْ كان الملك إنما يَحكِي عن نفسِه .

---

(١) كل واحدة من هذه الكلمات الأربع ، صدر بيت من قصيدته الدالية ، في المتجردة . انظرها في ديوانه .

وإذا جعلتموه على الخطابِ قَبُح : إن نسبتموه إليَّ فهو مُندِية [مخزية] وإن نسبتموه إلى النعمانِ فهو إزراء وتنقُّص .

ابن القارح : للهِ دَرُّك يا كوكبَ بني مُرَّة . ولقد صحَّفَ عليك أَهلُ العلم من الرواة ، وكيف لي بأَبوي عمرو : المازني والشيباني وأَبي عبيدة ، وعبدِ الملك [الأَصمعي] وغيرِهم من النَقلة ، لأَسأَلهم كيف يَروُون ، وأَنت شاهدٌ ، لتعلمَ أَني غيرُ المتخرِّصِ ولا الوَلَّاغ ؟

* * *

مشهد

مجلس أدبي

[الشعراء الخمسة ، ثم أربعة من أئمة الرواة]

فلا يقر هذا القولُ في أُذنِ أَبي أمامةَ إلا والرواةُ أَجمعون قد أحضرهم اللهُ القادر ، من غيرِ مشقة نالتْهم . ولا كلفةٍ في ذلك أَصابتْهم . فيُسلِّمون [على أهل المجلس] بلطف ورِفق .

ابن القارح : مَن هذه الشخوصُ المحروسية ؟

الرواة ، معاً : نحن الرواةُ الذين شئتَ إحضارَهم آنِفاً .

ابن القارح : لا إله إلا اللهُ مُكوِّناً مُدوناً . وسبحانَ اللهِ باعِثاً وارثاً . وتبارَكَ اللهُ قادِراً لا غادراً .

كيف تَروون أَيها المرحومون قولَ النابغة في « الدالية »:

* وإذا نظرتَ ، وإذا لمستَ ، وإذا طعنت ، وإذا نزعت * ؟ أبِفتَح التاءِ أم بِضَمِّها ؟

الرواة : بِفتحِها .

ابن القارح : هذا شيخُنا أبو أمامة يختار الضمَّ ، ويُخبِر أنه حكاه عن النعمان .

الرواة : هو كما جاءَ في الكتاب الكريم :

« والأَمرُ إليكِ فانظُري ماذا تأْمُرِين » .

ابن القارح ، للذبياني :

– مضى الكلام في هذا يا أبا أُمامة ، فأَنشِدْنا كلمتَك التي أولُها :

أَلِمَّا على المَمْطورةِ المتأَبِّده
أَقامتْ بها في المربَعِ المتجرده
مضمخة بالمسكِ مخضوبة الشَّوَى
بِدُرٍّ وياقوتٍ لها متقلده
كأَن ثناياها . وما ذقتُ طَعمَها .
مُجاجةُ نحلٍ في كُمَيْتٍ مبَرَّدَه
لِيَقْرِرْ بها النعمانُ عَيْناً فإنها
له نِعمةٌ ، في كلِّ يومٍ مُجَدَّده [1]

(١) الممطورة : التي سقاها المطر . المتأبدة : المنعزلة . المربع : حيث مطر الربيع . الشوى : الأطراف .

النابغة الذبياني : ما أذكرُ أني سَلَكتُ هذا القَرِيَّ قط .

ابن القارح : إن ذلك لَعَجب ، فمن الذي تطوَّع فنَسبها إليك ؟

الذبياني : إنها لم تُنْسَبْ إليَّ على سبيلِ التطوُّع ، ولكنْ على معنى الغلَطِ والتوهم . ولعلها لِرَجلٍ من بني ثعلبة بنِ سعد .

النابغة الجعدي ، [مفسرا] : صَحِبَني شابٌّ في الجاهلية ونحن نريد الحِيرةَ ، فأَنشدني هذه القصيدةَ لنفسِه ، وذكر أنه من ثعلبةَ بنِ عُكابة . وصادف قدومُه شكاةً من النعمانِ فلم يصلْ إليه .

الذبياني : ما أَجدرَ ذلك أن يكون .

ابن القارح ، لنابغة بني جعدة :

– يا أبا ليلى . أنشِدْنا كلمتَك التي على الشين ، التي تقول فيها :

ولقـد أَغـدو بشَرْبٍ أُنُـفٍ ... قبلَ أَن يظهرَ في الأَرضِ رَبَشْ
مَعَنَـا زِقٌّ إلى سُمَّهَـةٍ ... تَسِقُ الاكالَ من رَطْب وهشّْ
فنزلنـا بمليـعٍ مُقْفِـرٍ ... مَسَّه طَلٌّ من الدَّجْنِ ورَشْ
ولدينـا قَيْنَـةٌ مُسْمِعَـةٌ ... ضخمةُ الأَردافِ من غيرِ نَفَشْ
وإذا نحـن بإجْـلٍ نافـر ... ونَعامٍ خِيطُه مثلُ الحَبَش
فحَملنـا ماهِنـاً يَخدمنا ... فوق يَعْبُوبٍ من الخيلِ أَجَشّْ
ثم قلنا : دونَـك الصيدَ بـه ... تُدرِكِ المحبوبَ منـا وتَعَش
فأَتانـا بشَبُـوبٍ نـاشِطٍ ... وظليـمٍ معـه أُمُّ خُشَشْ

فاشتَوَيْنـــا من غريضٍ طيِّـــبٍ غيرِ مَمنونٍ ، وأُبْنا بِغَبَشْ

نابغة بني جعدة : ما جعلتُ الشينَ قط رَوِيّاً ! وفي هذا الشعرِ ألفاظٌ لم أَسمعْ بها قط : ربَش ، وسُمَّهة ، وخُشَش ...

ابن القارح : يا أَبا ليلى ، لقد طال عهدُك بـألفاظ الفصحاء ، وشغَلَك شرابٌ ما جاءَتْك بمثلِه بابلُ وأَذْرِعَات ، وثَنَتْكَ لحومُ الطيرِ الراتعة في رياضِ الجنة ، فنسيتَ ما كنتَ عرفتَ . ولا ملامةَ إذا نسيتَ ذلك : « إن أَصحابَ الجنةِ اليومَ في شغُلٍ فاكهون * هم وأزواجُهم في ظلالٍ على الأَرائكِ مُتكِئون * لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يَدَّعون »

أَما ربَش ، فمن قولهم : أَرضٌ بَرشاء ، إذا ظهرتْ فيها قِطعٌ من النبات ، وكأَنها مقلوبة عن بَرْشاء . وأَما السُّمَّهة ، فشَبيهةٌ بالسُّفْرَةِ تُتَّخَذُ من الخُوص . وأَما خُشَش ، فإن أَبا عمرو الشيباني ذكر في (كتابِ الخاءِ) أَن الخششَ ولدُ الظبية .

فكيف تنشد قولك :

وليسَ بمعروفٍ لنا أَن نَرُدَّهـا
صِحَاحاً ، ولا مستنكَراً أَن تُعَقَّرا

أَتقول : ولا مستنكرا ؟ أَم : مستنكرٍ ؟

الجعدي : بل ، مستنكراً .

ابن القارح : فإن أَنشد منشد : مستنكرٍ ، ما تصنعُ به ؟

الجعدي : أَزجُره وأزبره . نطَقَ بأَمرٍ لا يَخبُرُه .

ابن القارح : إنا لله وإنا إليه راجعون . ما أرى « سيبويه » إلا وَهِمَ في هذا البيت ، لأَن أبا ليلى أدركَ جاهليةً وإسلاما وغُذي بالفصاحةِ غلاما .

وينثني إلى أعشى قيس فيقول :

- يا أبا بصير . أَنشدنا قولك :

أَمِنْ قَتلَـةَ بالأَنْقـا ءِ دارٌ غيـرُ مَحلولَهْ
كأَن لم تصحب الحيَّ بهـا بيضاءُ عُطْبوله
أَناةٌ يأْخُـذُ القُوسِيَّ منهـا مَنظَرٌ هُولَه
وما صهباءُ من عانة في الذارع محموله
تولىَّ كَرْمَها أَصهبُ يَسقيه ويغـدو له
ثوَتْ في الخَرْسِ أعواما وجاءَتْ وهْيَ مقتوله
بمـاءِ المُزنةِ الغـرا ءِ راحتْ وهي مشموله
بأَشهى منكِ للظمـآ نِ لو أنكِ مبذوله [1]

أَعشى قيس . منكرا : ما هذه مما صَدر عني . وإناكَ منذُ اليوم لَمُولَعٌ بالمنحولات !

* * *

(١) الأنقاء : قطع الرمل المحدودبة . غير محلولة : غير مسكونة .
عطبولة : المرأة الفتية الجميلة التامة .
الأناة : التي فيها فتور . القوسي : الراهب . الهوله : العجب المهول .
الذارع : الزق الصغير يسلخ من جلد الذراع .
الأصهب : المشوب اللون بالحمرة .
الخرس : الدن .
المزنة : القطعة من السحاب ذي المطر .



طرب وغناء

[الأشخاص السابقون]

يمر رِفٌّ ، من إوَزِّ الجنة ، فلا يلبثُ أن ينزلَ على تلك الروضةِ ويقفَ وقوفَ منتظرٍ لأمرٍ

ابن القارح ، للسرب ، وقد توقع أن يتكلمن :

ـ ما شأنكن ؟

الإوز : أُلهِمنا أن نَسقُطَ في هذه الروضة فنغني لمن فيها من شَرِب .

ابن القارح : على بركةِ اللهِ القدير .

ينتفضنَ فيَصِرْن جَوارِيَ كواعِبَ ، يَرفُلن في وشي الجنة . وبأيديهن المزاهرُ وأنواعُ ما يُلتمس به الملاهي .

ابن القارح لإحداهن ، على سبيل الامتحان :

ـ اعملي قولَ أبي أمامة ، وهو هذا القاعد :

أَمِنَ آلِ ميَّةَ رائحٌ أَو مغتدي   عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزوَّدِ

ثقيلاً أَول .

تصنعه ، فتجيء به مُطرِبا وفي أَعضاءِ السامع مُتسرباً .
ولو نُحِتَ صخرٌ من أَحجارٍ ثم سمع ذلك الصوت
لرقص [ويقترح عليها ابن القارح ، ألحانا ثمانية ، فتؤديها ببراعة مذهلة] .

ابن القارح : مهللا مكبرا :

– ويحكِ : أَلم تكوني الساعةَ إوزةً طائرة ؟ فمن أَين لك هذا العلم ؟ لو نشأْتِ بين مَعْبدٍ وابنِ سُرَيْج ، لما هِجْتِ السامعَ هذا الهيجَ . فكيف نَفَضتِ بَلَهَ إوزٍّ ، وهززتِ إلى الطربِ أَشدَّ الهز ؟

المغنية : وما الذي رأَيتَ من قُدرةِ بارئك ؟ إنك على سِيفِ بحرٍ لا يُدرَك له عِبر . سبحانَ مَن يُحيي العظامَ وهي رميم .

يمرُّ شابٌّ في يده مِحْجَنٌ من ياقوت ، فيسلم عليهم (١)

الجماعة : مَن أَنتَ ؟

الشاب : أَنا لبيد بن ربيعة بن كلاب .

الجماعة : أُكرِمتَ أُكرِمْت ، لو قلتَ : « لبيدٌ » وسَكَتَّ ، لشُهرت باسمِك وإن صَمَتَّ . فما بالك في مغفرةِ ربِّك ؟

---

(١) المحجن : عصا منعطفة الرأس .

لبيد :أنا بحمدِ اللهِ في عيشٍ قصَّر أَن يصفَه الواصفون . لا هَرَمَ ولا بَرَم .

ابن القارح : تبارك الملكُ القدوس . ومَن لا تُدرِكُ يقينَه الحُدوس[1] . كأَنك لم تقل في الدارِ الفانية :

ولقد سئمت من الحياةِ وطُولِها وسؤالِ هذا الناسِ كيف لَبيدُ

ولم تَفُهْ بقولِك :

فمــتى أَهلِــكْ فــلا أَحفِله بَجَلي الآنَ من العيشِ بَجَلْ
من حياةٍ قد سئمنا طولَهــا وجديرٌ طولُ عيشٍ أَن يُمَلّ

فأَنشِدْنا « ميميتَك المعلقة » .

لبيد :هيهات ! إني تركتُ الشعرَ في الدار الخادعة ، ولن أعود إليه في الدارِ الآخرة . وقد عوِّضْتُ ما هو خيرٌ وأَبَرّ .

ابن القارح : أَخبرني عن قولِك :

ترَّاكُ أَمكِنَةٍ إذا لم أَرْضَهــــا أَو يرتبطْ بعضَ النفوسِ حِمَامُها

هل أَردتَ ببعضٍ ، معنى كلٍّ ؟

لبيد : كلا ، إنما أَردتُ نفسي ، وهذا كما تقول للرجل : « إذا ذهب مالُكَ أَعطاك بعضُ الناسِ مالا » وأَنت تعني نفسَك في الحقيقة ، وظاهرُ الكلامِ واقعٌ على كلٍّ

(١) الحدوس : جمع حدس ، وهو الظن والتخمين .

إنسان . وعلى كلِّ فرقةٍ تكون بعضاً للناسِ ...

ابن القارح : فما مغزاك في قولك :

وصبوحِ صافيةٍ وجَذب كَرينةٍ   بِمُوَتَّرٍ تـأْتالـهُ إبهامُها [(١)]

فإن الناسَ يروون هذا البيتَ على وجهين : منهم من ينشده : تـأْتَالُه . يجعله . تفتعله . من آل الشيء يؤوله إذا ساسه . ومنهم من ينشد : تـأْتَى لَه . من الإتيان .

لبيد : كِلا الوجهين يَحتمله البيت .

ابن القارح : إن أبا علي الفارسي . كان يدَّعي في هذا البيتِ أنه مثل قولهم : استحى يستحي على مذهب الخليل وسيبويه. لأَنهما يريان أن قولهم استحيت . إنما جاء على قولهم . استحاي . كما أن استقمت مأْخوذة من استقام .

وهذا مذهب ظريف . لأَنه يعتقد أن تـأْتَى مأْخوذة من : أوى . كأَنه بُني منها افتعل . فقيل : ائتاي . فأُعِلَّتْ الواوُ كما تُعَلُّ في قولنا : اعتان . من العون . واقتالَ من القول . ثم قيل . ائتيت فحُذِفت الأَلف ..

لبيد :مُعترِضٌ لِعَنَنٍ لم يَعْنِه [(٢)] . الأَمرُ أَيسرُ مما ظنَّ هذا المتكلفُ .

---

(١) الكرينة : المغنية . والموتر : له أوتار .

وتأتاله — بفتح اللام: من تأتيت له . على مهل وترسل. وبالضم: من . آل الأمر : ساسهوأصلحه .

(٢) مثل يضرب للمعترض فيما ليس من شأنه .

[ثم ملتفتاً إلى الأعشى] :

– سبحانَ الله يا أبا بَصير . بعد إقرارِك بما تعلمُ . غُفِرَ لك وحصلتَ في جنةِ عدن ؟

ابن القارح . متكلما عن الأعشى :

– كأنك يا أبا عقيل تعني قولَه :

وأشربُ بالريفِ حتى يقا ... لَ قد طال بالريفِ ما قدرجَنْ
صَريفيــةً طيِّبــاً طَعمُها ... تُصَفَّقُ ما بين كوبٍ ودَنْ
وأقررتُ عيني من الغانيـا ... ت . إما نِكاحاً وإما أُزَنّ (١)

وقولَه :

فَبِــتُّ الخليفةَ من بَعْلِها ... وسيِّــدَ تَيَّــا ومستادِهــا

وقوله :

فظللتُ أرعاها وظــلَّ يَحوطُها ... حتى دنوتُ إذ الظلامُ دنا لها
فرمَيْتُ غَفْلَةَ عينهِ عن شَاتِــه ... فأصبتُ حَبَّةَ قلبِها وطِحالَها

ونحوَ ذلك مما رُوي عنه .

فلا يخلو من أحدِ أمرين : إما أن يكونَ قاله تحسيناً للكلام على مذهبِ الشعراء . وإما أن يكونَ فعله فغُفِر له :

« قلْ يا عِبادِيَ الذين أسْرَفوا على أنفسِهم لا تَقْنَطوا

(١) رجن : دجن وأقام . صريفية . من خمر صريفين .

من رَحْمةِ اللهِ إن اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

« إن الله لا يغفرُ أن يُشْرَك به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء ، ومَنْ يُشرِكْ باللهِ فقد ضَلَّ ضلالا بعيداً » .

* * *

ويخطر له غناءُ القيان بالفسطاط ومدينةِ السلام .

ويَذكرُ ترجيعَهن بميميةِ المُخبَّلِ السعدي .

تندفع الجواري التي نَقلتْهن القدرةُ من خَلْقِ الطير [الإوز] إلى خلقِ الحور ، تلحِّن قولَ « المخبل السعدي » :

ذَكَرَ الربابَ وذِكرُها سُقْمُ　　وصَبَا ، وليس لمن صبا عَزْمُ
وإذا أَلَمَّ خيالُها طرِفتْ　　عَيْني ، فماءُ شئونِها سَجْمُ
كاللؤلؤِ المسجُورِ توبِعَ في　　سِلْكِ النظامِ فخانَه النظمُ

ابن القارح لندمائه ، وقد هزَّهم الطرب :

ـ أَلا تسمعون إلى قولِ السعدي ؟

وتقولُ عاذلتي ، وليس لها　　بِغَدٍ ، ولا ما بَعده ، عِلْمُ
إن الثراءَ هو الخلودُ وإنَّ المرءَ يَكْرُبُ يومَه العُدْمُ
ولئن بنيت ليَ المُشَقَّرَ في　　عنقاءَ تَقْصُرُ دونَها العُصْمُ
لَتُنَقِّبَنْ عني المنيةُ إن اللهَ ليس كَحُكمِه حُكمُ

[ثم يستطرد معلقاً] :

إنه المسكين ! قال هذه الأَبيات وبنو آدمَ في دارِ المحن والبلاء . يقبضون من الشدائد على السُّلاَّء [1] . والوالدة تخاف المنيةَ على الوَلد . ولا يزالُ رُعْبها في الخلَد . والفقرُ يُرهَبُ ويُتَّقى ، والمالُ يُطلَب ويُستَبقى . والسغَبُ موجودٌ والظِّماءُ . والكَمَهُ معروفٌ والكِماءُ .

فالحمد لله « الذي أَذهبَ عنا الحزَنَ إن ربَّنا لَغَفورٌ شكور * الذي أَحلَّنا دارَ المُقامةِ من فَضْلِه . لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوب » .

فتبارك اللهُ القدوسُ . نَقَلَ هؤلاءِ المسمعاتِ من زِيِّ رَبَّاتِ الأَجنحة إلى زِيِّ رباتِ الأَكْفَالِ المترجِّحة ، ثم أَلهمهن بالحكمةِ حِفظَ أَشعارٍ لم تمرر قبلُ بمسامِعهن . فجئن بها مُتقنةً ، محمولةً على الطرائق ملَحَّنة .

ولقد كانت الجارية في الدارِ العاجلة إذا تُفُرِّسَتْ فيها النجابةُ . وأُحضِرتْ لها المُلحِّنة لِتُلْقِيَ إليها ما تعرف من ثقيلٍ وخفيف تُقيم معها الشهرَ قبل أَن تُلقن كذباً . بيتاً من الغزلِ أَو بيتين . ثم تُعطى المائةَ [من الدنانير] أَو المائتين ، فسبحانَ القادر على كلِّ عزيز .

نابغة بني جعدة ، للأَعشى :

– يا أَبا بصير . أَهذه « الربابُ » التي ذكرها السعديُّ .

---

(١) السلاء : الشوك .

هي ربابُك التي ذكرتَها في قولك :

بِعَاصِي العواذلِ طَلْـقِ اليدينِ يُعطي الجزيلَ ويُرخِي الإزَارا
فما نطَق الديكُ حـتى مـلأْ تُ كوبَ الرَّبابِ له فاستدارا ؟

أَبو بصير ـ هازئاً ـ :

ـ قد طال عُمرك يا أبا ليلى . وأَحسَبُكَ قد أصابك الفندُ فبقيتَ على فندِك إلى اليوم ! أَما علمت أَن اللواتي يُسمين بالربابِ أَكثرُ من أَن يُحْصَين ؟ أَفتظنُّ أَن الربابَ هذه هي التي ذكرها القائل :

ما بالُ قومِك يـا رَبـاب خُـزْراً كأَنهمْ غِضاب
غاروا عليكِ . وكيـف ذا كِ ودونك الخرْقُ اليَباب ؟

أَو التي ذكرها امرؤ القيس في قولِه :

دارٌ لِهندٍ والربـابِ وفَرْتَـني ولَميس . قبلَ حوادثِ الأَيام ؟

ولعل أُمَّها أُمِّ الربابِ المذكورة في قولِهِ :

* وجارتِها أُمِّ الربابِ بِمَأْسَلِ *

نابغة بني جعدة : [ماضياً في سخريته] :

ـ أتكلمُني بمثلِ هذا الكلامِ يا خليع بني ضبيعة . وقد متَّ كافراً وأَقررتَ على نفسِك بالفاحشة ؟ وأَنا لقيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأَنشدتُه كلمتي التي أقول فيها :

بلغنا السماءَ مجدنَا وسناءَنا وإنا لَنبغي فوق ذلك مَظهرا

فقال : « إلى أَين يا أَبا ليلى ؟ » فقلت : إلى الجنةِ بك يا رسولَ الله . فقال : « لا يفضُض الله فاكَ » .

أَغرَّك أن عَدَّك بعضُ الجُهَّالِ رابعَ الشعراء الأَربعة ؟[1] وكذبَ مفَضِّلُكَ ، وإني لأَطْوَلُ منكَ نفسًا وأَكثر تصرفا . ولقد بلغتُ بعددِ البيوت [من الشعر] ما لم يبلغه أَحدٌ من العربِ قبلي ، وأنت لاهٍ بعفارتك [خبثك] تَفتري على كرائم قومِك . وإن صَدقتَ فَخزياً لك ! ولقد وُفِّقَت « الهِزَّانية »[2] في تَخْليتِك ، عاشرتْ منك النابحَ عثِيَ فطاف الأَحوية [من البيوت] على العظام المنتبَذَة ، وحرص على انتباث [نبش] الأَجداث المنفردة ...

أبو بصير . [مغضباً مستفزاً] :

ـ أَتقول هذا وإن بيتاً مما بنيتُ لَيَعدلُ بمائةٍ من بنائِك ؟ وإن أَسهبتَ في مَنطقِك فإن المُسْهِب كَحَاطبِ الليلِ . وإني لفي الجرثومةِ [الصميم] من ربيعةِ الفرس ، وإنك لمن بني جَعدةَ . وهل جعدةُ إلا رائدةُ ظليمٍ نَفور ؟ أَتُعَيِّرني

(١) مع : امرىء القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني . وهم شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين ، في (طبقات الشعراء) لابن سلام أما النابغة الجعدي ، فهو أول شعراء الطبقة الثالثة .
(٢) مطلقة الأعشى ، وكانت من بني هزان .

مدحَ الملوكِ ، ولو قدرتَ يا جاهلُ على ذلك ، لهجَرتَ إليه أَهلَكَ وولَدك ؟ ولكنك خُلِقْتَ جباناً لا تُدْلجُ في الظلماءِ الداجيةِ . ولا تُهَجِّر في الوَديقةِ الصاخِدة .

وذكرتَ لي طلاقَ الهِزَّانية ، ولعلها بانَتْ عني مُسِرَّةً الكَمَدَ . والطلاقُ ليس بِمنكَرٍ للسُّوقِ ولا للملوك .

الجعدي : اسكتْ يا ضُلَّ ابنَ ضُلٍّ ... أَلستَ القائلَ :

فدخلتُ إذ نام الرقيبُ فبِتُّ دونَ ثيابِها
حتى إذا ما استرسلتْ للنوم بعدَ لِعابِها
قَسَّمْتها نصفين كلُّ مُسوَّدٍ يُرمَى بها
فثنيتُ جِيدَ غَريرةٍ ولَمستُ بطنَ حِقابِها

. . . .

واستقللتَ ببني جَعدة ، ولَيومٌ من أَيامهم يرجح بِمساعي قومِك . وزعمتَني جباناً وكذبتَ . لَأَنا أَشجعُ منك ومن أَبيك ، وأَصبَرُ على إدلاجِ المظلمةِ ذاتِ الأَريز – الصقيع – وأَشدُّ إيغالا في الهاجرةِ أُمِّ الصخدان.

ويثب نابغة بني جعدةَ على أَبي بصير . فيضربه بِكوزٍ من ذَهب .

ابن القارح : لا عربدةَ في الجِنان . إنما يُعرَفُ ذلك في الدارِ الفانية بين السفلةِ والهِجاج . وإنك يا أَبا ليلى لمتنزع ، وقد

رُوِي في الحديثِ أَنَّ رجُلا صاح بالبصرة : « يا آل قيس » . فجاءَ النابغةُ الجعدي بعُصيَّةٍ له ، فأَخذه شُرَطُ أَبي موسى الأَشعري فجلَده ، لأَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « من تَعَزَّى بِعزَاءِ الجاهلية فليس منا » .

ولولا أَن في الكتاب الكريم : « لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزِفون » لظننناك أَصابكَ نزفٌ في عقلِك . فأَما أَبو بصير ، فما شرِبَ إلا اللبنَ والعسلَ [1] وإنه لوقورٌ في المجلس ، وإنما مثلُه معنا مثل أَبي نُواس في قوله :

أَيها العاذلانِ في الراحِ لُوماً ... لا أَذوقُ المدامَ إلا شَميما
نالني بالعتابِ فيها إمــــامٌ ... لا أَرَى لي خلافَه مستقيما
إن حَظِّيَ منها إذا هي دارتْ ... أَن أَراها ، وأَن أَشُمَّ النسيما
فاصرِفاها إلى سِوايَ فــإني ... لستُ إلا على الحديثِ نديما
فكأَني ومــا أُحَسِّنُ منهـــا ... قَعَديٌ يُحسِّنُ التحكيما
لم يُطِقْ حَمْلَه السلاحَ إلى الحربِ ... فأَوْصَى المطيقَ أَلا يقيما

نابغة بني جعدة [معلقاً على شرب الأعشى اللبن ، دون الخمر] :

ــ قد كان الناسُ في أَيام الخادعة يظهرُ عنهم السفَهُ بُشربِ اللبن ، لا سيما إذا كانوا أَرقاءَ لِئاماً ، كما قال الراجز :

(١) إشارة إلى ما سبق من حديث الأعشى عن دخوله الجنة ، على ألا يشرب فيها خمرا . فهو مع القوم كأبي نواس مع نداماه ، حين حرم عليه « الأمين » شرب الخمر .

يا ابنَ هشامٍ أهلكَ الناسَ اللبنْ

فكُلُّهم يغدو بسَيــفٍ وقَــرَنْ

وقيل لبعضِهم : متى يُخاف شرُّ بني فلان ؟

قال : إذا ألبنوا [1] .

ابن القارح ، يريد أن يُصلِحَ بينهما :

– يجب أن يُحذَر من مَلَكٍ يَعْبُرُ فيرى هذا المجلسَ ، فيرفَعُ حديثَه إلى الجبارِ الأعظم ، فلا يجر ذلك إلا إلى ما تكرهان ، واستغنى ربُّنا أن تُرفَعَ الأخبارُ إليه ، ولكنْ جَرَى ذلك مجرى الحفَظةِ في الدار العاجلة [2] أما علمتما أن آدمَ خرج من الجنةِ بذنبٍ حقير ؟ فغير آمِنٍ مَن وَلدَ [آدمُ] أن يُقْدَرَ له مثلُ ذلك.

ثم للأعشى :

– فسألتك باللهِ يا أبا بصير ، هل يَهجِسُ لك تَمَنِّي المدام ؟

الأعشى : كلا واللهِ ، إنها عندي لَمِثْل المقر [المر] لا يخطرُ ذكرُها بالخلَدِ ، فالحمدُ لله الذي سقاني عنها السلوانةَ ، فما أحفِلُ بها أُخْرَى الدهرِ .

---

(١) أي : إذا شربوا اللبن .

(٢) يستأنس أبو العلاء هنا ، بمثل آيات الانفطار :

« وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون » .

وانظر معها آيات : يونس ٢١ ، الزخرف ٨٠ .

ابن القارح ، لنابغةِ بني جعدةَ وهو ينهض مغضبا . فيكره انصرافَه على تلك الحال :

ـ يا أبا ليلى ، إن اللهَ جلَّتْ قدرتُه ، مَنَّ علينا بهؤلاءِ الحورِ العِين اللواتي حَوَّلهن عن خَلق الإِوَز . فاخترْ لك واحدةً منهن فلتذهبْ معك إلى منزلِك ، تُلاحِنك أرقَّ اللِحان ، وتُسمعك ضروبَ الألحان .

لبيد بن ربيعة :

ـ إن أخذ أبو ليلى قينةً ، وأخذ غيرُه مِثلَها ، أليس ينتشرُ خبرُها في الجنةِ ، فلا يؤمن أن يُسمَّى فاعلو ذلك أزواجَ الإِوَزِّ ؟

تضرب الجماعة عن اقتسام أُولئك القيان

ويمر حسان بن ثابت بالمجلس

أهل المجلس : أهلاً أبا عبد الرحمن . ألا تَحدَّثُ معنا ساعةً ؟

يجلس « حسان » إليهم ، فيقولون :

ـ أين هذه المشروبةُ [يشيرون إلى خمر الجنة] من سَبيئتِك التي ذكرتَها في قولك :

كـأَنَّ سبيئةً من بيتِ راسٍ يكونُ مزاجَها عَسَلٌ ومـاءُ
على أنيابِها ، أوِ طعمَ غَضٍّ من التفاح هَصَّـره اجتنـاء
على فِيها ، إذا ما الليل قلَّت كواكبُه ، ومالَ بها الغطاء

إذا ما الأَشرِباتُ ذُكِرْنَ يوماً فهُنَّ لطيِّبِ الراحِ الفِداءُ [1]

ويحك ! ما استحييتَ أن تذكرَ مثلَ هذا في مِدحتِك رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟

حسان : إنه كان أَسجحَ خُلقاً مما تظنون . ولم أَقلْ إلا خيراً :
لم أذكر أَني شربتُ خمراً ، ولا ركبتُ مما حُظِرَ أمرا .
وإنما وصَفْتُ ريقَ امرأةٍ ، يجوز أن يكون حِلاًّ لي .
ويُمكن أن أَقوله على الظن ... وما سُمِع بأَكرمَ منه صلى الله عليه : لقد أَفِكْتُ فجلدَني مع « مِسطح » [2] ، ثم وهَب لي أُختَ مارية [3] ، فولَدتْ لي « عبدَ الرحمن » وهي خالة ولدِه ابراهيم .

يهم ابنُ القارح بأَن يسأَل حسانَ وغيرَه
عن أَشياءَ من شعره ، خطَرَت في ضميرِه .
ثم يخاف أن يكونوا لما طَلَبَ غيرَ مُحسِنين .
فيضربُ عنها إكراماً للجليس .

قائل من القوم . لحسانَ مُعرِّضاً :
– كيف جُبْنُك يا أَبا عبدِ الرحمن ؟

---

(١) من همزية حسان في مدح المصطفى يوم الفتح . وبيت رأس : قرية بحلب اشتهرت بالكروم .
(٢) أفك : خاض في حديث الإفك قبل أن يحسمه القرآن ببراءة السيدة عائشة أم المؤمنين ، في آيات سورة النور وكذلك خاض فيه « مسطح بن أثاثة بن عباد » فجلدا في حد الإفك .
(٣) أخت مارية : سيرين. وقد أهداهما المقوقس عظيم القبط ، إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام.

حسان : أَلِي يُقال هذا وقومي أَشجع العرب ؟ أَراد ستة منهم [يوم بيعة العقبة الأُولى] أَن يميلوا على أَهل الموسم بأَسيافهم [1] . وأَجاروا النبيَّ صلى الله عليه ، على أَن يُحاربوا معه كلَّ عَنودٍ ، فرمتْهم ربيعةُ ومضرُ وجميعُ العرب عن قوس العداوة ، وأَضمروا لهم ضِغنَ الشنآن . وإنْ ظَهرَ مني تَحرُّزٌ في بعضِ المواطن ، فإنما ذلك على طريقةِ الحزْم ، كما جاءَ في الكتابِ الكريم : « ومَن يُولِّهم يومئذ دُبُرَه إلا متَحرِّفاً لقتالٍ أَو متَحَيِّزاً إلى فئةٍ فقد باءَ بغضبٍ من اللهِ وسوءِ المصير » .

يفترقُ اصلُ المجلس .

---

(١) قوم حسان هم الخزرج . والإشارة هنا إلى بيعة العقبة . انظرها في (السيرة) .

مشهد

مع عُوران قيس

ثم قصة المحشر

[أبو العلاء ممهداً :]

فبينا هو – ابن القارح – يطوف في رياض
الجنة . لقيه خمسةُ نفرٍ ، على خمسِ أينُق (١)

* * *

ابن القارح : ما رأيت أحسَنَ من عيونِكم في أهلِ الجنان ، فمن أنتم خلد عليكم النعيم ؟

[الخمسة معاً ، ثم واحداً بعد الآخر ، يقدم نفسه] :

– نحن عُورانُ قيسٍ :

تميم بنُ أُبَيٍّ بنِ مقبل العجلاني .

وعمرو بن أحمرَ الباهلي .

(١) جمع ناقة .

والشمَّاخُ . مَعْقِلُ بن ضِرار . من بني ثعلبةَ بن سعدِ ابن ذُبيانَ ،

وراعي الإبل . عبيدُ بنُ الْحُصَين النميري .

وحميد بنُ ثَوْرٍ الهِلالي .

ابن القارح . للشماخ :

– لقد كان في نفسي أشياءُ من قصيدتِك التي على [حرف] الزاي . وكلمتك التي على الجيم ، فأَنشِدْنيهما لا زلتَ مخَلَّدا كريما .

الشماخ : لقد شغَلني عنهما النعيمُ الدائم . فما أَذكرُ منهما بيتا واحدا .

ابن القارح : لقد غَفَلْتَ أيها المؤمنُ وأَضَعْتَ ! أَما علمتَ أَن كلمتيك أَنفعُ لك من ابنتيك ؟ ذُكِرتَ بهما في المواطِن ، وشُهِرْتَ عند راكبِ السفر والقاطِنِ . وإن القصيدةَ من قصائد النابغة لأَنفعُ له من ابنته « عقربَ » ولعل تلك شانَتْه وما زانَتْه ، وأَصابها في الجاهلية سِباء ....

وإن شئتَ أَن أُنشدَك قصيدتَك فإن ذلك ليس بمتعذر عليَّ .

الشماخ : أَنشِدْني . ضَفَتْ عليك نعمة الله .

ابن القارح مُنشدا قصيدةَ الشماخ ، على حرف الزاي :

عَفَا من سُليمى بطنُ قَوٍّ فعالِزُ

فَذاتُ الغَضَى فالمشرِفاتُ النواشِزُ

الشماخ . وكأنه يسمعُها لأول مرة :

- شغلتني لذائذُ الخلود عن تعهُّدِ هذه المنكرات. [ويتلو] :

« إن المتقين في ظلالٍ وعُيون * وفواكهَ مما يَشتهون * كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » .

إنما كنت أَسِقُ هذه الأُمورَ وأَنا آمُلُ أَن أُعَارَ بها ناقةً أَو أُعطَى بها كَيْلَ عِيالي سنَةً . وأَنا الآن في تفضلِ الله . أَغترِف في مَرافدِ العسجدِ من أَنهارِ اللبن . فتارةً أَلبانَ الإبل وتارة أَلبانَ البقر . وإن شئتُ لبنَ الضأْن فإنه كثير جمٌّ . وكذلك لبن المعيز . وإن أَحببتُ وردا من رِسْلِ الأَراوي [ضأن الجبل] فربَّ نهرٍ منه كأَنه دجلةُ أَو الفرات . ولقد أَراني في دارِ الشقوةِ أَجْهدُ أَخلافَ شِياهٍ لا يمتلىءُ منهن القعب (١) .

ابن القارح [منصرفاً عن الشماخ إلى رفاقه] :

- فأَين عمرو بن أَحمر ؟

عمرو بن أَحمر : هاأَنذا .

ابن القارح : أَنشِدْني قولَك :

بان الشبابُ وأَخْلَفَ العَمْـرُ وتَغَيَّر الإخوانُ والدهـرُ

وقد اختلف الناس في تفسير « العَمْر » فقيل : إنك أَردتَ البقاء ،

(١) الأخلاف : الضروع . والشياه : جمع شاة .

وقيل: إنك أردتَ الواحدَ من عمور الأَسنان .وهو اللحم الذي بينها .

عمرو . متمثلا :

خُذَا وجهَ هَرْشَى أو قَفاها فإنـه

كِلاَ جانبي هَرْشَى لهن طريـقُ

ولم تترك فيَّ أهوالُ القيامة بقية للإنشاد . أما سمعتَ الآية : « يوم تَذْهَلُ كلُّ مُرضِعَةٍ عما أَرضعَتْ وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها . وترى الناسَ سُكارى وما هم بِسُكارى ولكنَّ عَذَابَ اللهِ شديد » .

وقد شهِدتَ الموقفَ – بالحشرِ – فالعجَبُ لك إذ بقي معك شيءٌ من روايتك !

ابن القارح :

– إني كنتُ أُخلِصُ الدعاءَ في أعقابِ الصلواتِ قبل أن أنتقلَ من تلك الدار ، أن يمتعني اللهُ بأَدبي في الدنيا والآخرة ، فأَجابني إلى ما سأَلتُ وهو الحميد . ولقد يعجِبُني قولُك :

ولقد غَدوتُ وما يُفزِّعُـني ... خوفٌ أحـاذِرُه ولا ذُعْـرُ

رؤدَ الشبابِ كأَنني غصـنٌ ... بِحَرَامِ مكةَ ناعمٌ نضـرُ

كشَرابِ قَيْلٍ عن مَطيِّتـهِ ... ولكـلِّ أمرٍ واقـعٍ قَـدْرُ

مُدَّ النهارُ له وطال عليه الليـ ... ـلُ واستَنْعَتْ بـه الخمر

ومُسِفَّـةٍ دَهْمـاءُ داجنـةٌ ... ركدتْ وأُسْبِلَ دونَها السِتْرُ

وجرادتـان تُغنيانهـمُ ... وتلالأَ المرجانُ والشذْرُ

ومُجَلجَلٍ دانٍ زبرجدُه ... حدِبٌ كما يتحدّب الدبرْ
وثنانِ حنانان بينهما ... وترٌ أجشُّ غناؤه زَمِرْ (١)

....

فما أردت بقولك : « كشرابِ قيلٍ » آلواحدَ من الأقيالِ . أم « قيل بن عتر » من عاد ؟

عمرو : إن الوجهين ليتصوّران .

الشيخ . ابن القارح :

– مما يدل على أن المرادَ « قيلُ بنْ عِتر » قولك :

« وجرادتان تغنيانهمْ » لأن الجرادتين ، فيما قيل . مغنيتان غنّتا لوفدِ عادٍ عند « الجرهمي » بمكة . فشُغِلوا عن الطوافِ بالبيتِ وسؤالِ اللهِ سبحانَه وتعالى فيما قَصَدوا له . فهلكتْ عادٌ وهم سامدون .

وقولك : « ومسمَعةٍ دهماءُ داجنةٌ » ما أردتَ به ؟

وقولك : « ومُجلجَلٍ دانٍ زبَرجدُه »

---

(١) الأبيات من قصيدته :

« بان الشباب وأخلف العمر »

الرؤد : الغصن أرطب وأنضر ما يكون . القيل : واحد الأقيال ، وهو أيضاً : قيل بن عتر ، وافد عاد إلى مكة في القحط . وقد شغل عن وفادته بالشراب وغناء الجرادتين .

استنعت : تمادت واستشرت .

المجلجل : العود . وثنان : مثنى « ثن » وهو الصنج .

حنانان : ذوا إيقاع مطرب شجي .

ابن أحمر : أمّا ذكرُ « الجرادتين » فلا يدل على أني خصَصتُ « قيلَ ابنَ عِتر » وإن كان في الوفد الذي غنّته الجرادتان . لأن العرب صارت تُسمي كلَّ قينةٍ جرادةً . حمْلاً على أن قينة في الدهرِ الأُولِ كانت تُدعى الجرادة. قال الشاعر :

تُغَنّينا الجَرادُ ونحن شَربُ
نُعَلُّ الراحَ خالطها المشورُ (١)

وأما المسفة الدهماء . فإنها القِدرُ .

وأما المجلجَل الداني زبرجده . فهو العودُ . وزبرجده : ما حسن منه . أما تسمع القائل يسمي ما تلوَّنَ من السحاب زِبرجا ؟ ومَن روى « مُجلجِل » بكسر الجيم . أراد السحابَ .

الشيخ . في عجب :

ـ كأنك أيها الرجلُ . وأنت عربيٌّ صميم يُستشهدُ بألفاظِك وقريضِك . تزعم ان الزبرجد من الزبرج ؟ فهذا يُقوِّي ما ادعاه صاحبُ « العَيْن » (٢) من أن الدال زائدة في قولهم : صملخدم [كزبرجد] وأهلُ البصرة ينفرون من ذلك .

---

(١) المشور : العسل المجتنى .
(٢) الخليل بن أحمد ، و « العين » القاموس المشهور ، مرتب على مخرج الحروف ، وأوله حرف العين .

ابن أحمر ، وقد ألهمه اللهُ علم التصريف :

– وما الذي أنكرتَ من أن يكون الزبرجُ من لفظِ الزبرجد ؟ كأنَّ فعلاً صُرِّف من الزبرجد ، فلم يمكن أن يُجاء بحروفهِ كلها . إذ كانت الأفعال لا يكونُ فيها خمسةُ أحرفٍ من الأُصول . فقيل ، زبرَجَ يُزَبْرِجُ . ثم بُني من ذلك الفعل اسمٌ فقيل : زِبْرِج . ألا ترى أنهم إذا صَغَّروا « فرزدقا » قالوا : فُريزد ، وإذا جمعوه قالوا : فرازد ، وليس ذلك بدليلٍ على أن القاف [1] زائدة ؟

الشيخ : كأَنك زعمتَ أن فِعلاً أُخِذ من الزبرجد ، ثم بُني منه الزبرجُ . فقد لزِمَك على هذا ، أن تكون الأفعالُ قبلَ الأسماء .

ابن أحمر : لا يلزمني ذلك . لأنني جعلتُ زِبرجداً أصلاً ، فيجوزُ أن يحدُثَ منه فروعٌ ليس حُكمُها كحكمِ الأُصول ...

* * *

الشيخ ، [منصرفاً عنه إلى رفاقه] :

– أيُّكم تميمُ بن أبيّ ؟

تميم : هاأنذا .

---

(١) التي سقطت في التصريف .

الشيخ : أخبرني عن قولك :

يا دارَ سلمى خَلاءً لا أُكلِّفُها   إلا المِرانةَ حتى تسأَم الدِّينا

ما أَردت بالمِرانة ؟ فقد قيل : إنك أَردتَ اسمَ امرأَة ، وقيل : هي اسم ناقة . وقيل : العادة .

تميم : واللهِ ما دخلتُ من بابِ الفردوس ومعي كلمةٌ من الشعرِ ولا الرجَز . وذلك أَني حوسبتُ حسابا شديدا وقيل لي : « كنتَ فيمن قاتلَ عليَّ بن أَبي طالب » . وانبرى لي « النجاشي الحارثي » [1] فما أَفلتُّ من اللهبِ حتى سفعني سَفعاتٍ .

وإنَّ حِفْظَك لمُبْقى عليك ، كأَنك لم تشهد أَهوالَ الحساب ، ومنادي الحشرِ يقول : أَين فلانُ بن فلان ؟ والشُوسُ الجبابرةُ من الملوكِ تَجذِبهم الزبانيةُ إلى الجحيم . والنسوةُ ذواتُ التيجان يُصَرْن [2] بأَلسنةٍ من الوقود فتأْخذ في فروعهن وأَجسادِهن . فيصحْن : هل من فداء ؟ هل من عذر يقام ؟ والشباب من أَولاد الأَكاسرة يتضاغَون [3] في سلاسلِ النارِ . ويقولون :

---

(١) شاعر إسلامي . كانت بينه وبين ابن مقبل خصومة . وهجاؤه ابني العجلان ، قوم ابن مقبل . مشهور .

(٢) فعله الماضي : أصار ، بمعنى أمال .

(٣) الضغاء : صوت السنور المقهور .

نحن أصحابُ الكنوز ، نحن أربابُ الفانية ، ولقد كانت لنا إلى الناسِ صنائعُ وأَيادٍ فلا فادِيَ ولا معين . فهتفَ داعٍ من تِبَلِ العرش : « أَو لم نُعَمِّرْكم ما يَتذكرُ فيه من تَذَكَّر وجاءَكم النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نصير » لقد جاءَتكم الرسلُ في زمانٍ بعد زمان ، وبذلتْ ما وُكِّد من الأَيمان . وقيل لكم في الكتاب : « واتقوا يوما تُرجَعون فيه إلى اللهِ ثم تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهم لا يُظلمون » فكنتم في لذاتِ الساخرةِ واغلين وعن أَعمالِ الآخرةِ متشاغلين ، فالآن ظهرَ النبأُ ، لا ظلمَ اليومَ إن اللهَ حَكَمَ بين العبادِ .

* * *

ابن القارح :

ـ أنا أقص عليك قصتي :

لما نهضتُ من القبر ، وحضرتُ عَرَصاتِ القيامة . ذكرتُ الآية : « تعرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يومٍ كان مقدارُه خمسين أَلفَ سنة ، فاصبِرْ صبرا جميلا » . فطال عليَّ الأَمدُ . واشتد الظمأُ والومَد ـ والومدُ : شدة الحرِّ مع سكون الريح ـ وأنا رجلٌ مِهياف ، أي سريع العطش ذافتكرت فرأيت أمراً لا قِوَامَ لمثلي به ، ولَقِيني الملكُ الحفيظ بما كُتِب لي من فعلِ الخير .

فوجدتُ حسناتي قليلة ، إلا أن التوبةَ في آخرِها كأنها مصباح أبيلٍ [1] رُفع لسالِك السبيل.

فلما أقمت في الموقِفِ زُهاءَ شهرٍ أو شهرين ، وخِفْتُ من الغَرَقِ في العرق . زيَّنتْ لي النفسُ الكاذبة أن أنظِمَ أبياتاً في « رِضوانَ » خازنِ الجنان ، عَمِلتها في وزن :

« قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ وعِرفان »

ووسمتها برضوانَ ، ثم ضانَكْتُ الناسَ حتى وقفتُ منه بحيث يسمعُ ويرى . فما حفل بي . ولا أظنه أبِهَ لما أقول . فغبرت برهةً . نحو عشرةِ أيام من أيام الفانية . ثم عملتْ أبياتاً في وزن :

بان الخليطُ ولو طووعتُ ما بانا
وقَطَّعوا من حبالِ الوَصْلِ أقرانا

ووسمتُها برضوانَ . ثم دنوت منه ففعلت كفِعلي الأول . فكأني أُحَرِّك ثبيرا . أو ألتمس من الغضرم عبيرا . والغضرمُ ترابٌ يُشبِه الجِصَّ . فلم أزل أتتبع الأوزانَ التي يمكن أن يُوسَم بها « رضوان » حتى أفنيتُها . وأنا لا أجد عنده مغوثة . ولا ظننته فهم ما أقول .

(١) الأبيل : الراهب .

فلما استقصيتُ الغرضَ فما أَنْجَحتُ ، دعوتُ بأَعلى صوتي : يا رضوان ، يا أَمين الجبار الأَعظم على الفراديس ، أَلم تسمع ندائي بك واستغاثتي إليك ؟ فقال : لقد سمعتك تذكر رضوانَ وما علمتُ ما مقصِدُكَ ، فما الذي تطلب أَيها المسكين ؟ فأَقول : أَنا رجل لا صبرَ لي ، وقد استطلتُ مدةَ الحساب ومعي صَكٌّ بالتوبة وهي للذنوب ماحية . وقد مدحتك بأَشعارٍ كثيرة ووسمتُها باسمِك . فقال : وما الأَشعار ؟ فإني لم أَسمع بهذه الكلمة إلا الساعةَ . فقلت : الأَشعارُ جمع شعرٍ ، والشعرُ كلامٌ موزون تقبله الغريزةُ على شرائط ، إن زاد أَو نقص أَبانه الحِسُّ . وكان أَهلُ العاجلة يتقربون به إلى الملوك والسادات . فجئت بشيءٍ منه إليك ، لعلك تأْذن لي بالدخولِ إلى الجنة . فقد استطلتُ ما الناسُ فيه وأَنا ضعيف مَنِينٌ ولا ريبَ أَني مِمَّن يرجو المغفرةَ وتصح له بمشيئة اللهِ تعالى .

فقال : إنك لَغبين الرأْي . أَتأْمل أَن آذنَ لك بغيرِ إذنٍ من ربِّ العِزة ؟ هيهاتَ هيهات ! « وأَنَّى لهم التناوُشُ من مَكانٍ بعيد » .

فتركته وانصرفتُ بأَملي إلى خازنٍ آخرَ يقال له «زُفَرُ» فعملت كلمةً ووسمتُها باسمِه في وزنِ قولِ لبيد :

تَمَنَّى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهما

وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ

وقربت منه فأنشدتها ، فكأني إنما أخاطب رَكودا صمَّاء لأستنزلَ أبوداً عصماء . ولم أترك وزناً مقيداً ولا مطلَقاً يجوز أن يوسَمِ بِزُفَرَ إلا وَسمْته به فما نجَح ولا غيَّر . فقلت :

رحمك اللهُ ! كنا في الدارِ الذاهبة نتقربُ إلى الرئيسِ والملكِ بالبيتين أو الثلاثة فنجدُ عنده ما نُحب . وقد نظمتُ فيك ما لو جُمِع لكان ديواناً ، وكأنك ما سمعتَ لي كلمة . فقال : لا أشعر بالذي قصدت ، فما بغيتُك ؟ فذكرتُ له ما أريد . فقال : واللهِ ما أقدرُ لك على نفع ولا أملِكُ لخلقٍ من شفع ، فمن أي الأممِ أنت ؟ فقلت : من أمة « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب » فقال : صدقتَ ، ذلك نبي العرب ، ومن تلك الجهة أتيتني بالقريض ، لأن إبليسَ اللعين نفثَه في إقليم العربِ ، فتعلمه نساءٌ ورجال . وقد وجبَ عليَّ نُصحُك ، فعليك بصاحبِك لعله يتوصل إلى ما ابتَغيتَ .

فيئست مما عنده ، فجعلت أتخلل العالمَ فإذا أنا برجلٍ عليه نورٌ يتلألأ ، وحواليه رجالٌ تأتلق منهم أنوار ، فقلت : مَن هذا الرجل ؟ فقيل : هذا « حمزة ،

صريع وحشي » وهؤلاء الذين حوله . مَن استشهد من المسلمين في « أُحُد » . فقلت لنفسي الكذوب : الشعرُ عند هذا أنفَق منه عند خازِن الجنان . لأَنه شاعر ، وإخوته شعراء ، وكذلك أَبوه وجَدُّه ، ولعله ليس بينه وبين مَعَدِّ بنِ عدنان إلا من قد نَظَم شيئا من موزون . فعملت أَبياتا على منهج أَبياتِ « كعبِ بن مالك » التي رثى بها « حمزةَ » ، وأَولُها :

صفيةُ قومي ولا تعجزي وبَكِّي النساءَ على حمزة

وجئت حتى وَلِيتُ منه فناديت :

يا سيدَ الشهداء ، يا عمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يا ابنَ عبد المطلب . فلما أَقبل عليَّ بوجهه أَنشدته الأَبيات فقال : ويحك ، أَفي مثل هذا الموطن تجيئني بالمديح ؟ أَما سمعتَ الآية : « لِكلِّ امرئٍ منهم يومئذ شأْنٌ يُغنيه » ؟

فقلت : بلى قد سمعتها ، وسمعت ما بعدها :

« وُجُوه يومئذ مُسْفِرَة * ضاحِكة مُستَبشرة * ووجوهٌ يومئذ عليها غَبَرَة * تَرْهَقها قَتَرَة * أُولئك هم الكفَرة الفَجَرة » .

فقال : إني لا أَقدر على ما تطلب ، ولكني أُنفِذ معك

رسولا إلى ابنِ أخي . علي بن أبي طالب . ليخاطبَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في أمرِك .

فبعث معي رجلا . فلما قصَّ قصتي على أمير المؤمنين ، قال : أَين بيِّنتُك ؟ يعني صحيفةَ حسناتي .

وكنتُ قد رأيت في المحشرِ شيخا لنا . كان يدرس النحو في الدار العاجلة . يعرف بأبي عليٍّ الفارسي . وقد امترس به قومٌ يطالبونه ويقولون : تأَوَّلتَ علينا وظلمتَنا . فلما رآني أشار إليَّ بيدِه فجئتُه فإذا عنده طبقةٌ . منهم « يزيدُ بنُ الحكم الكلابيُّ » وهو يقول : ويحك . أنشدتَ عني هذا البيتَ برفعِ الماء — يعني قولَه :

فليتَ كَفافاً كان شَرُّك كلـه

وخُيرك عني ما ارتوى الماءُ مرتوي

ولم أَقل إلا : الماءَ . وكذلك زعمتَ أني فتحتُ الميم في قولي :

تبدلْ خليلاً بي ، كَشَكلِك شَكْلُه

فإني خليلاً صالحا بِـك مَقتوي

وإنما قلت : مُقتوي ، بضم الميم .

وإذا هناك راجز يقول : تأولتَ عليَّ أني قلتُ :

* يا إبلي ما ذنبه فتأْبَيَه *

فحركتَ الياءَ في : تأْبيه ، ووالله ما فعلتُ ولا غيري من العرب .

وإذا رجلٌ آخر يقول : ادَّعيتَ عليَّ أَن الهاءَ راجعةٌ إلى الدرس في قولي :

* هذا سُراقةُ للقرآن يدرسُه *

أَفمجنونٌ أَنا حتى أَعتقدَ ذلك ؟

وإذا جماعةٌ من هذا الجنسِ كلهم يلومونه على تأْويله . فقلت :

يا قوم ، إن هذه أُمورٌ هينة ، فلا تُعنِتوا هذا الشيخَ فإنه يُمتُّ بكتابِه في القرآن المعروف بكتابِ (الحُجَّة) . وإنه ما سَفَك لكم دَما ، ولا احتجن عنكم مالا .

فتفرقوا عنه .

وشُغِلتُ بخطابِهم والنظرِ في حَويرِهم ، فسقط مني الكتابُ الذي فيه ذِكرُ التوبة . فرجعتُ أَطلبه فما وجدتُه . فأَظهرتُ الجزع والوَلَه ، فقال أَميرُ المؤمنين : لا عليك ، أَلك شاهدٌ بالتوبة ؟ فقلتُ : نعم ، قاضي حلَب وعُدولُها . فقال : بمن يُعرَفُ ذلك الرجلُ ؟ فأَقول : بعبد المنعم بنِ عبدِ الكريم ، قاضي حلب حرسها الله في

أَيام شِبلِ الدولة . فأَقام أَميرُ المؤمنين هاتفا يهتِف في الموقف : يا عبدَ المنعم بن عبد الكريم ، قاضي حلبَ في زمانِ شبل الدولة ، هل معك عِلمٌ من توبة علي بن منصور بن طالب ، الحلبي الأَديب ؟

فلم يُجبه أَحد . فأَخذني الهلَعُ . ثم هتفَ الثانيةَ فلم يجبه مُجيب . فليح بي عند ذلك ، أَي صُرِعت إلى الأَرض . ثم نادى الثالثةَ ، فأَجابه قائلٌ يقول : نعم ، قد شهِدت توبةَ عليٍّ بنِ منصور ، وذلك بأَخَرَةٍ من الوقت ، وحضَرتْ مَتابَه عندي جماعةٌ من العدول ، وأَنا يومئذٍ قاضي حلبَ وأَعمالِها ، واللهُ المستعان .

فعندئذ نهضتُ وقد أَخذتُ الرمَقَ ، فذكرتُ لأَميرِ المؤمنين عليه السلامُ ما أَلتمسُ ، فأَعرض عني وقال : إنك لَتروم مُمتنِعا ، ولك أُسْوةٌ بولدِ أَبيك آدم .

وهممتُ بالحوضِ فكِدتُ لا أَصِلُ إليه ، ثم نَغَبتُ منه نغبات لا ظمأَ بعدها . وإذا الكَفَرةُ يَحمِلون أَنفسَهم على الوِرد ، فتَذُودُهم الزبانية بعصِيٍّ تضطرم نارا ، فيرجعُ أَحدُهم وقد احترق وجهُه أَو يدُه ، وهو يدعو بِوَيلٍ وثبور .

فطُفْتُ على العِترة – من آل البيت – فقلتُ : إني كنتُ في الدار الذاهبة إذا كتبت كتابا وفرغتُ منه

قلتُ في آخره : « وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى عِترتِه الأَخيار الطيبين » وهذه حُرمة لي ووسيلة .

فقالوا : ما نَصنع بك ؟ فقلت : إن مولاتَنا فاطمةَ عليها السلامُ قد دخلت الجنةَ مذ دهر ، وإنها تخرُجُ في كلِّ حينٍ مقدارُه أَربع وعشرون ساعة من الدنيا الفانية ، فتسلم على أَبيها وهو قائم لشهادةِ القضاء ، ثم تعودُ إلى مستَقَرِّها من الجِنان . فإذا هي خرجتْ كالعادةِ فاسأَلوا في أَمري بأَجمعكم ، فلعلها تسأَل أَباها . – صلى الله عليه وسلم – فيَّ .

فلما حان خروجُها ونادى الهاتفُ : « أَنْ غُضُّوا أَبصارَكم يا أَهلَ الموقف حتى تعبُرَ فاطمةُ بنتُ محمد صلى الله عليه » . اجتمع من آل طالب خلق كثير ، ممن لم يشرب خمرا ولا عرف قط منكرا . فلَقُوها في بعضِ السبيل ، فلما رأَتهم قالت : أَلكم حالٌ تُذكر ؟ فقالوا : نحن بخير ، ولا نريدُ أَن نتسرعَ إلى الجنةِ قبل الميقات ، إذ كُنا آمنين ناعمين بدليلِ قوله تعالى : « إن الذين سبقتْ لهم منا الحسنى أُولئك عنها مُبْعَدون * لا يسمعون حَسيسَها وهم فيما اشتهتْ أَنفسُهم خالدون * لا يَحزُنُهم الفزعُ الأَكبرُ وتتلقاهم الملائكةُ هذا يومُكم الذي كنتم تُوعَدون » .

وكان فيهم عليٌّ بن الحسين . وابناه محمد وزيد . وغيرُهم من الأَبرار الصالحين . ومع فاطمةَ عليها السلام ، امرأَةٌ تجري مجراها في الشرف والجلالة . فقيل : من هذه ؟ فقيل : « خديجة ابنة خويلد بن أَسد » ومعها شبابٌ على أَفراسٍ من نورٍ : بنو محمد صلى الله عليه .

فقالت تلك الجماعةُ التي سأَلتُ - لمولاتنا فاطمة - : هذا وَليٌّ من أَوليائنا ، قد صَحَّت توبتُه ، ولا ريبَ أَنه من أَهلِ الجنة . وقد توسلَ بنا إليك ، صلى اللهُ عليكِ . في أَن يُراحَ من أَهوالِ الموقفِ ويصيرَ إلى الجنةِ فيتعجلَ الفوزَ .

فقالت لأَخيها ابراهيمَ صلى اللهُ عليه : دونَكَ الرجلَ . فتعلقتُ بركابه . وتخللنا الناسَ وقد عظم الزحامُ ، حتى وقفتُ عند محمد ﷺ ، فقال - بعد أَنه عرف أَمري : حتى يُنظَرَ في عمله . فسأَلَ عن عملي ، فوُجِدَ في الديوانِ الأَعظم وقد خُتِم بالتوبة . فشفع لي ، فأُذِنَ لي بالدخول .

فلما صِرتُ إلى باب الجنة . قال لي رضوانُ : هل معك من جَوازٍ ؟ فقلت : لا ، فقال : لا سبيلَ لك إلى الدخولِ إلا به ، فعييتُ بالأَمر ...

والتفتَ ابرهيمُ صلى الله عليه فرآني وقد تخلفتُ عنه ، فرجع إليَّ فجذبني جَذبةً نقلني بها إلى الجنة .

وكان مقامي في الموقف مدةَ ستة أَشهر من شهورِ العاجلة ، فلذلك بقي عليَّ حِفْظي ، ما نزفتْه الأَهوالُ ولا نَهَكَه تدقيقُ الحساب .

* * *

[ثم ، يلتفت إلى عوران قيس ، ويسأل] :

– فأيُّكم راعي الإبل ؟

[يشيرون اليه] ويقولون : هذا .

ابن القارح ، بعد أن يسلم عليه :

– أَرجو أَن لا أَجدَك مثل أَصحابِك صِفْراً من حفظِك وعربيتك ؟

الراعي : أَرجو ذلك ، فاسأَلْني ولا تُطيلَنَّ .

ابن القارح : أَحَقٌّ ما رَوَى عنك « سيبويه » في قصيدتِك اللامية التي تمدح بها عبدَ الملك بن مروان ، من أَنك تنصب الجماعة في قولك :

أَيامَ قومي والجماعةَ كالذي
لزم الرحالةَ أَن تَميل مَمِيلا ؟

الراعي : حق ذلك .

ابن القارح ، ينصرف عنه إلى – خامسهم – حميد بن ثور الهلالي :

– إيه يا حميد ، لقد أَحسنتَ في قولك :

أَرى بصري قد رابني بعد صحـة
وحسبُك داءً أَن تَصِـحَّ وتَسلمـا
ولن يلبث العصران : يومٌ وليلة
إذا طلبـا أَن يُدرِكـا ما تَيَمَّما

فكيف بصرُك اليوم ؟

حميد : إني لأَكون في مغاربِ الجنة ، فأَلمح الصديقَ من أَصدقائي وهو بمشارقها ، وبيني وبينه مسيرةُ أُلوفِ أعوامٍ للشمسِ التي عرفتَ سرعةَ مسيرِها في العاجلة . فتعالى اللهُ القادرُ على كلِّ بديع .

ابن القارح : لقد أحسَنْتَ في الدالية التي أَولها :

جِلِبَّانةٌ وَرْهـاءُ تَخصِي حِمارهـا
بِفِي مَن بَغَى خيراً لديها الجَلامِدُ

حميد : لقد شُغِلتُ عن كلِّ ميمٍ ودَالٍ ، بملاعبةِ حُورٍ خِدالٍ .

ابن القارح : أَمِثْلُ هذه الداليةِ تُرفَض ... ؟ وفيها الصفةُ التي ظننتُ أَن القطاميَّ أَخذها منك ، وقد يجوزُ ذلك لأَنكما في عصر واحد ، وذلك قولُك :

تـأَوَّبهـا في ليـلِ نَحسٍ وقـرَّةٍ خليلي أَبو الخشخاشِ والليلُ باردُ
فقام يُصاديها ، فقالت : تريدني على الزادِ ، شكلٌ بيننا متباعد
إذا قال : مهلاً أَسْجِحي ، لمحتْ له بِزرقاءَ لم تدخُلْ عليها المراودُ

هذه الصفةُ نحوٌ من قول القطامي :

تلفَّعتُ في طَلٍّ وريح تَلُفُّني ... وفي طرمساءَ غيرِ ذاتِ كواكبِ
إلى حيزبونٍ تُوقد النارَ بعد ما ... تصوَّبت الجوزاءُ قصدَ المغارب
تقول ، وقد قرَّبتُ كوري وناقتي: ... إليكَ فلا تَذعَرْ عليَّ ركائبي

والأَبياتُ معروفة .

حميد : لقد شُغِلتُ بما وهب ربي الكريم . ولا خوف عليَّ ولا حزَن . ولقد كان الرجلُ منا يُعمل فِكرَه السنةَ أَو الأَشهرَ ، في الرجلِ قد آتاه اللهُ الشرفَ والمال ، فربما رجعَ بالخيبةِ . وإن أَعطى فعطاءٌ زهيد . ولكن النظمَ فضيلةُ العرب .

* * *

ويعرض لهم لبيد بن ربيعة فيدعوهم إلى منزله بالقيسية (١) ويقسم عليهم لَيذهَبُنَّ معه . يمشون قليلا ، فإذا هم بأَبياتٍ ثلاثةٍ ليس في الجنة نظيرُها بهاءً وحسنا .

لبيد ، لابن القارح : مشيراً إليها :

ـ أتعرف أَيها الأَديبُ الحلبي هذه الأَبيات ؟

ابن القارح : لا ، والذي حجَّت القبائلُ كعبتَه .

---

(١) يعني : حي بني قيس في الجنة . ولبيد ، منهم .

لبيــد : أَما الأَولُ فقولي :

إن تقوى ربِّنا خيرُ نَفَــلْ وبإذنِ اللهِ رَيْثي والعَجَــلْ

وأَما الثاني فقولي :

أَحمــدُ اللهَ فــلا نِــدَّ لــه بيديه الخيرُ ، ما شاءَ فَعَلْ

وأَما الثالث فقولي :

من هَداه سُبُلَ الخيرِ اهتدى ناعمَ البال . ومَنْ شاءَ أَضَلّْ

صيَّرها ربي اللطيفُ الخبير أَبياتاً في الجنة ، أَسكنها أُخرى الأَبد ، وأَنعم نعيمَ المُخلد .

ابن القارح والشعراء معه ، في عجب :

- إن الله قدير على ما أَراد .

* * *



مأْدُبة في جنة الغفران

ويبدو للشيخ ، أَيد الله مجده ، أَن يصنع مادبة في الجنان يجمع فيهـا مَن أَمكن من الشعراء الخضرمـة والإِسلام ، والذين أَصَّلـوا كـلام العرب وجعلوه محفوظاً في الكتب . فيخطر له أَن تكونَ كمآدبِ الدار العاجلة ، إِذ كان الباري جلت عظمتُه لا يُعجزه أَن يأْتيهـم بجميـع الأَغراض . فتُنشأ أَرحـاءٌ عـلى الكوثر من دُرٍّ وعسجد ، لطحن بُرِّ الجنَّة ، فـإِذا اجتمع من الطحن ما يظن أَنه كافٍ للمأْدبة ، تفرق خدمه من الولدان المخلدين فجاءوا بالجِداء ، وضروبِ الطير التي جرت العادةُ بأَكلها . وقال : أَحضِروا مَن في الجنة من طُهاةِ حلبَ عن ممر الأَزمـان . فتحضر جماعةٌ كثيرة فيأْمرهم باتخـاذ الأَطعمة .

وتلك لذة يهبها الله سبحانه . بدليل قوله تعالى : « وفيها ما تشتهيه الأَنفُس وتلَذ الأَعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنــة التي أورثتموهــا بما كنتم تعملون * لكم فيهــا فاكهة كثيرة منها تـأْكلون » .

فإذا أَتت الأَطعمة . افترق غلمانُه الذين كأَنهم اللؤلؤ المكنون لإحضار المدعوين . فلا يتركون في الجنة شاعراً إسلامياً ولا مخضرماً ، ولا عالماً بشيء من أَصناف العلوم ولا متـأَدباً ، إلا أَحضروه . فيجتمع خلق كثير فتوضع الخُون من الذهب واللجين . ويجلس عليها الآكلون . وتُنقل إليهم الصحافُ . فإذا قضوا الأَربَ من الطعام . جاءت السقاةُ بأَصنافِ الأَشربةِ . والمُسمِعاتُ بالأَصواتِ المطربة .

ابن القارح : لغلمانه :

ـ عليَّ بمن في الجنة من المغنين والمغنيات ممن كان في الدارِ العاجلة فقُضيت له التوبة .

تحضر جماعةٌ كثيرة من رجالٍ ونساء . فيهم الغريضُ ومَعبدٌ ومسجَحٌ وابنُ سُرَيج . ثم يحضر إبرهيمُ الموصلي وابنُه إسحاق .

أَحد المدعوين . وقد رأى أسرابَ قيانٍ حضرن . مثل بصبص ودنانير وعنان :

ـ من العجبِ أن الجرادتين في أَقصى الجنة .

ابن القارح : لا بد من حضورهما .

يركب بعضُ الخدمِ ناقةً من نوق الجنة ويذهب إليهما على بُعد مكانهما . فتقبلان أسرع من البرق .

ابن القارح : بعد أن يحييهما ببشاشة :

ـ كيف خلصتما إلى دارِ الرحمة . بعد ما خبطتما في الضلال ؟

الجرادتان : قُدِرت لنا التوبة . ومُتْنا على دينِ الأَنبياءِ المرسلين .

ابن القارح : أَحسن اللهُ إليكما . أَسمِعانا شيئاً من القصيدة الحائية التي تُروى لعَبيد ـ بن الأبرص ـ مرةً . ولأَوسِ بن حجر أخرى .

الجرادتان تغنيان . وما سمعنا قط بعبيدٍ ولا أوس :

ودِّعْ لميسَ وداعَ الوامقِ اللاحي
قد فنَّكتْ في فسادٍ بعد إصلاحِ
إذ تستبيك بمصقولٍ عوارضه
حَمْشِ اللثاتِ عِذابٍ غيرِ مملاحِ

كأن ريقتَها بعد الكَرى اغتبقت

من ماءِ أَدكنَ في الحانوتِ نَضّاح

ومن مُشعشعةٍ وَرهاءَ نشوتُها

ومن أنابيبِ رُمَّانٍ وتفاح

هَبَّتْ تلومُ وليست ساعةَ اللاحي

هلاَّ انتظرتِ بهذا اللوم إصباحي

قاتلها اللهُ تلحاني وقد عَلمتْ

أني لنفسيَ إفسادي وإصلاحي

إن أَشرب الخمرَ أو أُرْزَأْ لها ثمناً

فلا محالة يوماً أنني صاحِ

ولا محالة من قبرٍ بمحنيَةٍ

أو في مَليعٍ كظهرِ الترسِ وَضّاحِ

فتطرِبان من سمع . وتَستفزان الأفئدة بالسرور .

ويكثر حمد الله سبحانه .

ويعرض له . أدام الله الجمالَ ببقائه . الشوقُ إلى نظرِ سحابٍ كالسحاب الذي وصفه قائل هذه القصيدة . فينشئُ الله تعالت آلاؤه سحابة كأحسنِ ما يكون من السحب . مُحلاة بالبرق في وسطها وأَطرافها . تُمطر بماءِ وردِ الجنة من طَلٍّ وطَشٍّ . وتنثر حَصى الكافور كأنه صغارُ

البَرد . فعزَّ إلهُنا القــديمُ الذي لا يُعجزه تصويرُ الآماني .

ويلتفت – إلى المدعوين – فإذا بجران العودِ النميري . فيحييه ويرحب به . ويقول لبعض القيان :

– أَسمعينا قولَ هذا المحسن:

حَملنَ جِرانَ العودِ حتى وضَعنه
بعلياءَ في أرجائها الجِنُّ تَعــزِفُ
وقلن تمتــعْ ليلــةَ النأْي هــذه
فإنك مرجومٌ غــداً أَو مُسيَّف

تغني القينة . فتصيبُ وتجيد .

القينة : وقد عجبتِ الجماعة من إحسانها :

أَتدرون مَن أنا ؟

أهل المجلس : لا . واللهِ المحمودِ .

القينة : أنا أم عمرو التي يقول فيها القائل :

تصُدُّ الكأْسَ عنا أُمُّ عمـــروٍ وكــان الكأْسُ مجراها اليَمينا
ومــا شَرُّ الثلاثــةِ أُمَّ عمــروٍ بصاحبِكِ الــذي لا تَصْبَحينا

أهل المجلس . وقد ازدادوا بها عجبا . ولها إكراماً :

ـ لمن هذا الشعرُ ؟ ألِعمرو بنِ عَدِي اللخمي ، أم لعمرو ابنِ كلثوم التغلبي ؟

القينة : أنا شهدت نَدماني جذيمة : مالِكاً وعَقيلا . وصبحتُهما الخمرَ المشعشعة لمَّا وَجَدا « عمرَو بنَ عدي » [1] . فكنت أَصرف الكأْس عنه ، فقال هذين البيتين . فلعل عمرو بن كلثوم حسَّن بهما كلامه واستزادهما في أبياته .

* * *

ويذكر الشيخ أَبياتاً تُنسَبُ إلى الخليلِ بن أَحمد ، وهو معهم بالحضرة ، وأَنها تصلحُ لأَن يُرقَصَ عليها . فينشئُ اللهُ القادرُ بلطفِ حكمته ، شجرةَ جَوز ، تونِعُ لوقتِها ، ثم تنفضُ ثمراً يَنشقُّ عن أَربع جَوارٍ يرقصن على الأَبياتِ المنسوبة إلى الخليل :

إن الخليطَ تَصَدَّعْ فَطِرْ بِدائكَ أو قَعْ
لولا جَوارٍ حسـان مثلُ الجآذرِ أَربعْ
لقلتُ للظاعن اظعن إذا بدا لك أَو دَعْ

فتهتز الأَرجاءُ طربا

(١) الإشارة هنا إلى حكاية جذيمة الأبرش ملك الحيرة ، وكان ينادم عدياً اللخمي فأحبته « رقاش» أخت جذيمة ، وأوحت إليه أن يستقي الملك صرفا ثم يخطبها إليه . فزوجه إياها ثم أنكر الأمر لما صحا من سكره . وفر عدي . واختفت رقاش بالبادية ترعى وليدها عمرو بن عدي . وقد عثر عليه مالك وعقيل ابنا فارج فحملاه إلى خاله جذيمة ، فعرفه وضمه إليه ، وجعل مالكا وعقيلا نديميه ، لمدى أربعين سنة ، فضرب المثل لطول ما نادماه.

ابن القارح : للخليل :

- لِمنْ هذه الأَبيات يا أَبا عبد الرحمن ؟

الخليل : لا أعلم .

ابن القارح : إنا كنا في الدار العاجلة نروي هذه الأَبيات لك .

الخليل : لا أذكر شيئاً من ذلك . ويجوزُ أَن يكونَ ما قيل حقا .

ابن القارح : أفنسيت يا أَبا عبد الرحمن وأَنت أَذْكَرُ العربِ في عصرِك ؟

الخليل : إن عبورَ الصراطِ ينفضُ الخلَدَ مما استُودِع .

ويخطر الشيخ ذكرُ الفُقَّاع الذي كان يُعمَل في الدار الخادعة . فيُجري الله بقدرته أنهارا من فُقاع . الجرعةُ منها لو عُدِلت بلذاتِ الفانية منذ خلق اللهُ السمواتِ والأَرض إلى يوم تَطوِي الأُممَ الآخرةُ : لكانت أَفضلَ وأَشَفَّ . فيقول في نفسه : قد علمتُ أَن الله قدير . والذي أُريدُ نحوَ ما كنت أَراه مع الطوافين في الدارِ الذاهبة . فلا تكمُلُ هذه المقالةُ حتى يجمعَ اللهُ كلَّ فُقاعي في الجنة : من أَهلِ العراق والشام وغيرِهما من البلاد . بين أَيديهم الولدانُ

المخلدون يحملون السلالَ إلى أهل ذلك المجلس .

ابن القارح . لجلسائه : ما تُسمَّى هذه السلالُ بالعربية ؟

بعضُهم : هذه تُسمى البواسنَ ، واحدتُها باسنة .

آخر : مَن ذكر هذا من أهل اللغة ؟

ابن القارح : قد ذكرها ابنُ درستويه — وهو معهم في الحضرة .

الخليل : لابن درستويه : من أين جئتَ بهذا الحرف ؟

ابن درستويه: وجدتُه في كتُبِ النضر بن شُميل .

الخليل ، للنضر : أتَحُق هذا يا نضرُ ، فأَنت عندنا الثقةُ .

النضر بن شميل : قد التبس عليَّ الأَمرُ ، ولم يَحْكِ هذا الرجلُ إن شاءَ الله إلا حقا .

ويعبر طاووسٌ من طواويس الجنة ، يروق
مَن رآه حُسنا . فيشتهيه أَبو عبيدة مَصُوصا
أَي منقوعا في الخلِّ . فيتكون كذلك في
صفحة من الذهب . فإذا قَضى منه الوَطرُ
انضمتْ عظامُه بعضُها إلى بعض ، ثم
تصير طاووسا كما بدأَ .

الجماعة : سبحان من يُحيي العظام وهي رميم . هذا كما جاءَ في

الكتاب الكريم : « وإذ قال ابراهيمْ ربِّ أرني كيف تُحيي الموتى قال أوَ لم تؤمنْ قال بلى ولكنْ ليطمئنَّ قلبي . قال فخُذْ أربعةً من الطيرِ فصُرْهن إليك ثم اجعَلْ على كلِّ جبلٍ منهن جزءا ثم ادعُهن يأْتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » .

ابن القارح . لمن حضر من اللغويين : ما وضعُ يطمئن [من الإعراب] ؟

بعض النحاة : نصبٌ بلامِ كي .

ابن القارح : هل يجوزْ غيرُ ذلك .

النحاة : لا يحضرُنا شيءٌ .

ابن القارح : يجوز أن يكون في موضع جزمٍ بلام الأمر . ويكون مخرج الكلام مخرَج الدعاء ، كما يقال : يا ربِّ اغفر لي ...

وتمر إوَزةٌ مثل البختية . فيتمناها بعضُ القوم شِواءً فتتمثل على خِوانٍ من الزمرد . فإذا قُضيت منها الحاجة عادت بإذن الله إلى هيئة ذوات الجناح . ويختارها بعضُ الحاضرين كردناجا وبعضهم معمولةً بسُمَّاق ، وبعضُهم معمولةً بلبنٍ وخَلٍّ . وغيرَ ذلك . وهي تكونُ على ما يريدون .

أَبو عثمان المازني ، للأَصمعي :

- يا أَبا سعيد ، ما وزن إِوَزة ؟

الأَصمعي : أَإِليَّ تُعرِّضُ بهذا يا فُصْعُل ، وطالَ ما جئتَ مجلسي بالبصرةِ وأنت لا يرفع بلك رأْس ؟ وزنُ إوزةٍ في الموجود : إِفَعْلة .

المازني : ما الدليل على أن الهمزةَ فيها زائدة ، وأَنها ليست بأَصلية ، ووزنها ليس فِعَلَّة ؟

الأَصمعي : أَما زيادة الهمزة في أَولها فيدل عليه قولُهم : وَزٌّ .

المازني : ليس ذلك بدليلٍ على أَن الهمزةَ زائدة . لأَنهم قد قالوا : ناس وأَصله أُناس .

الأَصمعي : أَليس أَصحابُك من أَهلِ القياس يزعمون أَنها إِفْعَلَة ؟

المازني : تأَوُّلٌ من أَصحابِنا وادعاء . لأَن إِوَزَّة لم يثبت أَن الهمزةَ فيها زائدة .

الأَصمعي ، متمثلا :

رَيَّشَتْ جُرهُم نَبْلاً فرَمى جُرْهمًا منهن فُوقٌ وغِرارْ

تَبِعتَهم مستفيدا ، ثم طعنتَ فيما قالوه مُعيدا . ما مَثَلك ومثلهم إلا كما قال الأول :

أُعلمه الرمايةَ كلَّ يوم فلما استدَّ ساعده رماني

وينهض كالمغضب ،

ويفترق أهل ذلك المجلس وهم ناعمون .

مشهد

مع حمدونة الحلبية وتوفيق السوداء

[أبو العلاء ، نهداً]

ويخلو ، الشيخُ ، لا أخلاه اللهُ من الإحسان ،

بحوريتين من الحورِ العين

ابن القارح ، مبهوراً بجمالهما :

ـ أعزِزْ عليَّ بهلاكِ الكندي . ـ امرىءِ القيس ـ إني لأذكرُ بكما قولَه:

كدأبِكَ من أُمِّ الحويرث قبلَها وجارتِها أُمِّ الرباب بمأْسَلِ
إذا قامتا تضوعَ المسكُ منهما نسيمَ الصبا جاءَت بريَّا القرنفل

وأين صاحبتاه منكما لا كرامةَ لهما ولا نعمةَ عين ؟
لَجلسةٌ معكما بمقدارِ دقيقةٍ من دقائق ساعات الدنيا ،
خيرٌ من مُلكِ بني آكلِ المُرار . وبني نصرٍ بالحيرة .
وآلِ جفنةَ ملوكِ الشام .

يُقبل على كل واحدة منهما يترشَّفُ رُضابَها ويقول :

ـ إن امرأ القيس لَمسكين مسكين ، تحترقُ عظامُه في السعير وأنا أتمثل بقولِه :

كأن المُدام وصوبَ الغمام وريحَ الخُزَامى ونشرَ القُطُرْ
يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابِها إذا غرَّد الطائر المستحِرْ

تستغرب إحداهما ضحكا فيقول :

ـ مم تضحكين ؟

الحورية : فرحاً بتفضُّلِ اللهِ الذي وهبَ نعيما وكان بالمغفرة زعيما . أتدري مَن أنا يا عليَّ بن منصور ؟

ابن القارح : أنتِ من حور الجنان اللواتي خلقكن اللهُ جزاء للمتقين ، وقال فيكن : « كأنهن الياقوتُ والمرجان » .

الحورية « حمدونة » : أنا كذلك بإنعام اللهِ العظيم . على أني كنت في الدارِ العاجلة أُعرف بحمدونةَ ، وأسكنُ في بابِ العراق بحلبَ . وأبي صاحبُ رَحَى . وتزوجني رجلٌ يبيع السقَطَ فطلقني لرائحةٍ كَرِهَها من فِيَّ . وكنتُ من أقبح نساءِ حلب ، فلما عرفتُ ذلك زهدتُ في الدنيا العرارة وتوفرتُ على العبادة ، وأكلتُ من مِغزَلي ، فصيَّرني ذلك إلى ما ترى .

الأخرى : أتدري من أنا يا عليَّ بن منصور ؟ أنا توفيقُ السوداء

التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد . على زمانِ أبي منصور محمد بنِ علي الخازن . وكنت أُخرِج الكتبَ إلى النُسَّاخ .

ابن القارح : لا إله إلا الله . لقد كنتِ سوداءَ فصرتِ أنصعَ من الكافور !

توفيق السوداء : أتعْجبُ من هذا . والشاعرْ يقول لبعضِ المخلوقين :

لو أَن من نوره مثقالَ خردلـــةٍ   في السودِ كلهمُ لابيضَّتِ السُّودُ .

[يبدو عليه ما يشبه الزهد فيهما] .

مشهد

مع إحدى الحور

ابن القارح : لِمَلَكٍ يمرُّ من الملائكة :

– يا عبدَ الله ، أَخبرْني عن الحورِ العِينِ ، أليس في الكتاب الكريم : « إنا أَنشأْناهن إنشاء * فَجعلناهن أبكارا * عُرُباً أترابا * لأَصحابِ اليمين » ؟

الملَك : هُنَّ على ضربين : ضرب خلقه الله في الجنة لم يعرف غيرَها . وضرب نقله اللهُ من الدارِ العاجلة لما عملَ من الأَعمال الصالحة .

ابن القارح ، في عجَب :

– فأَين اللواتي لم يكُنَّ في الدارِ الفانية ؟ وكيف يتميزن من غيرِهن ؟

الملَك : اُقْفُ أَثَري ، لترى البديع من قدرة الله .

« فيجيءُ به إلى حدائقَ لا يَعرفُ

كنهَها إلا اللهُ . ويقول :

ــ خذ ثمرة من هذا الشجرِ فاكسرْها . فإن هذا الشجرَ يُعرفُ بشجرِ الحور .

فيأْخذ ثمرة فيكسرها . فتخرج منها

جاريةٌ حوراءُ عينـــاء . تبرَق لحسنِها

حورياتُ الجنان .

الحورية : من أَنتَ يا عبدَ الله ؟

ابن القارح : [أنا علي بن منصور] [1]

الحـــورية : إني أُمَنَّى بلقائك قبلَ أن يخلق اللهُ الدنيا بأَربعةِ آلافِ سنة .

ابن القارح : وهو يسجد إعظاماً للهِ القدير :

ــ هذا كما جاءَ في الحديث : « أعددتُ لعبادي المؤمنين ما لا عينٌ رأَتْ . ولا أُذُن سمعتْ . بلْهَ ما أطلعتهم عليه » .

. . . .

---

(١) في الأصل : أنا فلان ابن فلان .

في أطراف الجنّة

مشهد

مع الجن المؤمنين

[أبو العلاء مهدأ :]

ويبدو للشيخ - ابن القارح - أن يطّلع على أهلِ النار فينظر إلى ما هم فيه ليعظم شكرُه على النعم . بدليلِ قوله تعالى : « قال قائلٌ منهم إني كان لي قرين * يقول أئنَّكَ لمن المُصدِّقين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لَمَدِينون * قال هل أنتم مُطَّلعون * فاطَّلَع فرآه في سواءِ الجحيم * قال تاللهِ إنْ كدتَ لَتُرْدِينِ * ولولا نعمةُ ربِّي لكنت من المُحضَرين » .

فيركب ويسير ، فإذا هو بمدائنَ ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها النورُ الشعشاني ، وهي ذات أَدحال وغَماليل .

ابن القارح . لبعضِ الملائكة :

ـ ما هذه يا عبد الله ؟

الملَك : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وذُكروا في سورتي الأَحقافِ والجِن . [1] وهم عدد كثير .

ابن القارح : لأَعدِلنَّ إلى هؤلاءِ فلن أَخلوَ لديهم من أعجوبة .

يعرُج عليهم . فإذا هو بشيخ منهم جالسٍ على بابِ مغارة . فيسلم عليه . فيحسن الردَّ ويقول :

الجني : ما جاءَ بكَ يا إنسي ؟ إنكَ بخيرٍ لعَسِيٌ ...

ابن القارح : سمعتُ أَنكم جِنٌّ مؤمنون فجئت أَلتمس عندكم أَخبارَ الجِنَّان وما لعله لديكم من أَشعارِ المردَة .

الجني : لقد أَصبتَ العالِمَ بالأَمرِ فسَلْ ما بدا لك .

---

(١) آيات الأحقاف : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم » ٢٩ : ٣١

وآيات الجن : « قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً » إلى قوله تعالى :

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقاً * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً »

١ : ١٥

ابن القارح : ما اسمُك أيها الشيخ ؟

الجني : أَنا الخيتعور ، أحدُ بني الشيصبان [حي من الجن] ولسنا من ولد إبليس ، ولكننا من الجِنِّ الذين كانوا يسكنون الأَرضَ قبل ولدِ آدمَ صلى الله عليه .

ابن القارح : أَخبرني عن أَشعارِ الجن ، فقد جمع منها المعروفُ بالمرزُباني قطعةً صالحة [1] .

الخيتعور : إنما ذلك هذيان لا مُعتَمَد عليه . وهل يعرفُ البشرُ من النظمِ إلا كما تعرفُ البقر من علم الهيئةِ ومساحةِ الأَرض ؟ وإنما لهم خمسةَ عشرَ جنساً من الموزون قلما يعدوها القائلون . وإن لنا لآلافَ أوزانٍ ما سمع بها الإِنس . وإنما كانت تخطر بهم أَطيفالٌ منا عارمون ، فتنفث إليهم مقدارَ الشظيةِ من أَرَاكِ نعمان . ولقد نظمتُ الرجزَ والقصيدَ قبل أن يخلق اللهُ آدمَ بكورٍ أَو كورين [والكور : الدور] وقد بلغني أَنكم معشرَ الإِنس تلهجون بقصيدة امرىء القيس :

* قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل *

وتحفظونها الغلمانَ في المكاتب . وإن شئتَ أَمليتُك أَلفَ كلمة على هذا الوزن ، على مثالِ : * منزل وحوملِ *

---

(١) للمرزباني ، محمد بن عمران (٢٩٧ : ٣٨٤هـ) كتاب في أشعار الجن ، ذكره معاصره ابن النديم في « الفهرست ».

وألفاً على : * منزلُ وحوملُ * وألفاً على : * منزلا وحوملا * وألفاً على : * منزلَهْ وحوملَهْ * وألفاً على : * منزلُهْ وحوملُه * وألفاً على : * منزلِه وحوملِهِ *

وكل ذلك لشاعرٍ منا هلك وهو كافر ، وهو الآن يشتعل في أطباق الجحيم .

ابن القارح : أيها الشيخ ، لقد بقي عليك حفظك !

الخيتعور : لسنا مثلكم يا بني آدم ، يغلب علينا النسيان والرطوبة ، لأنكم خُلقتم من حمأٍ مسنون ، وخُلقنا من مارج من نار .

ابن القارح : أفتُمِلُّ عليَّ شيئا من تلك الأشعار ؟

الخيتعور : فإذا شئت أمللتك مالا تحمله الركاب ولا تسعه صحف دنياك .

ابن القارح ، متراجعا عما همَّ به من ذلك :

– لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب ولم أحظَ منه بطائل . وإنما كنت أتقرب به إلى الرؤساءِ فأحتلب منهم دَرَّ بكيء [أي ناقة بخيلة بلبنها] ولستُ بموفق إن تركتُ لذاتِ الجنة وأقبلت أنتسخ آدابَ الجن ، ومعي من الأدب ما هو كافٍ . لا سيما وقد شاع النسيان في أهل أدب الجنة ، فصرت من أكثرهم رواية وأوسعهم حفظاً ولله الحمد .

ما كنيتُك لأُكرمك بالتكنية ؟

الخيتعور : أبو هدرش . أولدت من الأَولاد ما شاءَ الله فهم قبائل ، بعضهم في النار الموقدة وبعضهم في الجنان .

ابن القارح : يا أَبا هدرش ، ما لي أَراك أَشيب وأَهل الجنة شباب ؟

أَبو هدرش ، الخيتعور : إن الإِنس أُكرِموا بذلك وأُحرِمناه ، لأَنا أعطِينا الحُولةَ في الدار الماضية . فكان أَحدنا إن شاءَ صار حيَّة رقشاءَ ، وإن شاءَ صار عصفورا ، وإن شاءَ صار حمامة . فمُنعنا التصوُّرَ في الدار الآخرة ، وعُوِّض بنو آدم كونَهم فيما حَسُنَ من الصوَر .

ولقد لقيت من بني آدمَ شَرّاً ولقوا مني كذلك : دخلتُ مرةً دارَ أُناسٍ أُريد أَن أَصرعَ فتاةً لهم ، فتصورتُ في صورة جُرَذ . فدعوا لي السنانيرَ فلما أَرهقتْني تحولتُ صِلاً أَرقمَ . ودخلتُ في قَطيلٍ هناك . فلما علموا ذلك كَشفوه عني . فلما خِفت القتلَ تحولتُ ريحا هفافة فلم يروا شيئا ، فجعلوا يتعجبون لذلك ويقولون : ليس هاهنا مكانٌ يمكن أن يستتر فيه . فبينا هم يتذاكرون ذلك . عمدتُ لِكَعابِهم في الكِلة فلما رأتني أَصابها الصرعُ . واجتمع أَهلها من كل أَوب وجاءوا بالأَطِبَّةِ وبذلوا المنفسات . فما ترك راقٍ رقيةً إلا عرضها عليَّ وأَنا لا أَزول . فلما أَصابها الحِمام طلبتُ لي سواها صاحبة . ثم كذلك . حتى رزق الله الإِنابة وأَثاب الجزيل فلا أَفتأُ له من الحامدين :

حمدت من حَـطِّ أوزاري ومزقها
عني فأصبح ذنبي الآن مغفورا
وكنتُ آلَفُ من أتراب قرطبةٍ
خُودا، وبالصين أخرى بنتَ يغبورا
أزورُ تلك وهـذي غيرَ مكترث
في ليلة قبل أن أستوضحَ النورا
ولا أمرُّ بوحشيٍّ ولا بَشَرٍ
إلا وغادرته ولهان مذعورا
أُروِّع الزنجَ إلمـاما بنسوتهـا
والرومَ والتركَ والصقلابَ والفورا
وأحضر الشَّربَ أعروهم بآبدةٍ
يُزْجُون عُودا ومزمارا وطنبورا
فلا أُفارقُهم حتى يكونَ لهم
فعلٌ يظلُّ به إبليسُ مسرورا
وأَصرِفُ العدلَ خَتْلاً عن أمانته
حتى يخون وحتى يشهد الزورا
وذادني المرءُ نوحٌ عن سفينته
ضربا إلى أن غدا الظنبوبُ مكسورا
وطِرْت في زمنِ الطوفان معتليا
في الجوِّ حتى رأيت الماءَ محسورا

أضللتُ رأيَ أبي ساسان عن رشد
وسِرْتُ مُستخفياً في جيشِ سابورا

وساد بهرامُ جورٍ ، وهو لي تبع
أيـــامَ يبني على علاتِـــه جُـــورا

فتارةً أنـــا صِـــلٌّ في نكارتـــــه
وربمـــا أبصرتْني العيـــنُ عصفورا

تلوح لي الإنسُ عُورا أو ذوي حوَلٍ
ولم تكن قط ، لا حُولا ولا عورا

ثم اتعظتُ وصارت توبتي مثلا
من بعد ما عِشت بالعصيانِ مشهورا

حتى إذا انقضت الدنيا ونودي إسـ
رافيلُ ويحكَ هلا تنفخُ الصورا

أماتني اللهُ شيئــا ثـــم أيقظـــني
لمبعثي فـــرُزِقـــتُ الخلدَ مبـــرورا

ابن القارح : للهِ دَرُّك يا أبا هدرش . لقد كنت تمارس أوابدَ ومنديات ! فكيف ألسنتُكم ؟ أيكون فيكم عربٌ لا يفهمون عن الروم . ورومٌ لا يفهمون عن العرب . كما نجد في أجيال الإنس ؟

أبو هدرش : هيهات أيها المرحوم . إنا أهلُ ذكاء وفِطَن ، ولا بد لأحدِنا أن يكون عارفا بجميع الألسنِ الإنسية ، ولنا بعد

ذلكَ لسانٌ لا يعرفه الأَنيس .

وأَنا الذي أَنذرت الجِنَّ بالكتاب المنزل : أَدلجت في رفقة من الخابل نريد اليمن . فمررنا بيثرب فسمعنا « قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أَحدا » وعدت إلى قومي فذكرت لهم ذلك فتسرعتْ منهم طوائفُ إلى الإيمان ...

[ثم ينشد أَبو هدرش قصيد سينية معيدة ، أَبياتُها سبعة وستون بيتا ، يحكي فيها مغامراته في الشر ، إلى أَن تاب واهتدى] [1]

فيعجب – ابن القارح – لما سمعه من ذلك الجني ويكره الإطالةَ عنده فيودِّعه .

---

(١) تجد نصها كاملا ، في « رسالة الغفران » ٢٩٨ / ط ٥ ذخائر .

مشهد

مع الحطيئة العبسي

[أبو العلاء ، ممهداً :]

فيذهب ، فإذا هو ببيتٍ في أقصى الجنة ، كأنه حِفشُ أَمَةٍ راعية . وفيه رجلٌ ليس عليه نورُ سكانِ الجنة . وعنده شجرةٌ قميئة ، ثمرُها ليس بزاكٍ .

ابن القارح :[وما يزال يجهل الرجل] : يا عبد الله ، لقد رضيتَ بحقير ..

الرجـــل :والله ما وصلت إليه إلا بعد هِياطٍ ومياط ، وشفاعةٍ من قريش وددتُ أنها لم تكن .

ابن القارح : مَن أنت ؟

الرجـــل :أنا الحطيئة العبسي .

ابن القارح : بم وصلتَ إلى الشفاعة ؟

الحطيئة : بالصدق .

ابن القارح : في أيٍّ شيء ؟

الحطيئة : في قولي :

أَبَتْ شفتاي اليومَ إلا تكلُّمــاً
بهُجْرٍ فما أَدري لمن أَنا قائلُــهْ

أَرى ليَ وجهــا شوّه اللهُ خَلقَــه
فقُبِّح من وَجْهٍ وقُبِّحَ حاملُــهْ

ابن القارح : ما بالُ قولِك :

من يفعل الخيرَ لا يعدمْ جوازيه
لا يذهبُ العُرْفُ بين اللهِ والناسِ

لم يُغفرْ لك به ؟

الحطيئة : سبقني إلى معناه الصالحون ، ونظمتُه ولم أَعمل به ، فحُرِمتُ الأَجرَ عليه .

ابن القارح : ما شأْنُ الزِّبرقان بن بدر ؟ (١)

الحطيئة : هو رئيس في الدنيا والآخرة ، انتفع بهجائي ولم ينتفع غيره بمديحي .

فيخلفه ويمضي .

* * *

(١) هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر ، مشهور معروف . وكان الحطيئة قد مر بحي الزبرقان في غيابه ، فلم يرض مقامه فيهم وقال يهجوهم :

ملوا قــراه وهرتــه كلابهـــم   ومزقتـــه بأنيــاب وأضــــراس
دع المــكارم لا ترحــل لبغيتهــا   واقعد فانك أنت الطاعــم الكاسي

الفصل الثاني

مَشَاهِد من جحيم الغفران

الأَشخاص ، في المشاهد المختارة :

ابن القارح

بشار بن برد	شاعر من مخضرمي الأموية والعباسية
امرؤ القيس ، عنترة العبسي ، أوس بن حجر ، مهلهل التغلبي ،	شعراء جاهليون
الأَخطل	شاعر أُموي

إبليس ، الزبانية ، خَزَنَةُ النار



مع إبليس ، وبشار بن برد

[يصل ابن القارح إلى النار لِيطَّلعَ على أَهلها كما بدا له . بعد أن مرَّ في أَقصى الجنـــة بالخنساءِ تطَّلع على أخيها صخر ، وكأَنه كما قالت فيه * علم في رأْسه نار *]

* * *

[أبو العلاء ممهداً :]

فيطَّلع ، الشيخ ، فيرى إبليس ، لعنه الله ، وهو يضطرب في الأَغلال والسلاسل ، ومقامعُ الحديد تـأْخذه من أَيدي الزبانية .

ابن القارح : الحمدُ لله الذي أَمكن منك يا عدوَّ الله وعدو أَوليائه . لقد أَهلكتَ من بني آدم طوائفَ لا يعلم عددَها إلا الله .

إبليس : مَن الرجلُ ؟

ابن القارح : أنا علي بن منصور[1] ، من أهلِ حلَب. كانت صناعتي الأَدب أتقرب به إلى الملوك.

إبليس : بئس الصناعة ! إنها تَهب غُفَّةً من العيش[2] لا يتسع بها العيال. وإنها لمزلَّة بالقدم. وكم أهلكتْ مثلَك. فهنيئا لك إذ نجوت.

وإن لي إليكَ حاجة. فإن قضيتَها شكرتُك يدَ المنون.

ابن القارح : إني لا أقدر لك على نفع. فإن الآيةَ سبقتْ في أهلِ النار، أَعني قوله تعالى: « ونادى أَصحابُ النارِ أصحابَ الجنةِ أَنْ أَفيضوا علينا من الماءِ أَو مِمَّا رزَقكُم اللهُ، قالوا إن اللهَ حَرَّمهما على الكافرين ».

إبليس : إني لا أسأَلُك في شيءٍ من ذلك. ولكنْ أَسأَلُك عن خَبَرٍ تُخبرنيه.

[يسأله اللعين عن أهل الجنة والولدان المخلدين .. ثم يستطرد]

– فما فعل بشارُ بن برد ؟ فإن له عندي يداً ليستْ لغيرِه من ولدِ آدم. كان يُفضلني دون الشعراء، وهو القائل :

---

(١) في الأصل : أنا فلان ابن فلان.

(٢) غفة من العيش : بلغة منه.

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدمٍ

فتبيّنوا يا معشرَ الأشرارِ

النارُ عنصرُه . وآدمُ طينةٌ

والطينُ لا يسمو سُموَّ النارِ

لقد قال الحقَّ . ولم يزلْ قائله عن الممقوتين .

فلا يسكت من كلامه إلا ورجلٌ في أصناف العذاب يُغمض عينيه حتى لا ينظرَ إلى ما نزل به من النقم . فيفتحهما الزبانية بكلاليبَ من نار . وإذا هو بشارُ بن برد . قد أُعطِيَ عينين بعدَ الكَمَهِ . لينظرَ إلى ما نزل به من النكال .

ابن القارح : يا أبا معاذ . لقد أحسنتَ في مقالك وأسأْتَ في معتقدك .
ولقد كنتُ في الدار العاجلة أذكر بعضَ قولك فأترحمُ عليكَ ظناً أن التوبةَ ستلحقك . مثلَ قولِك :

ارجعْ إلى سَكَنٍ تلوذُ به ... ذهبَ الزمانُ وأنت منفردُ

ترجو غداً . وغدٌ كحاملةٍ ... في الحيِّ لا يَدرون ما تَلِدُ

وقولِك :

واهاً لأسماءَ ابنةِ الأشدِّ ... قامتْ تَراءَى إذ رأَتْني وحدي

كالشمس بين الزِّبرج المنقَدِّ ... ضنَّت بخَدٍّ وجَلَتْ عن خَدِّ

ثم انثنتْ كالنفَس المرتَـدِّ وصاحبٍ كالدُّمَّـلِ المُمِدِّ
أَرقُبُ منه مثلَ حُمَّى الـوِرْدِ حملتُه في رُقعة من جِلدي

. . . .

الآنَ وقع منك اليأْسْ .

وقلت في هذه القصيدة « السُّبْدِ » في بعض قوافيها . فإن كنت أَردت جمع سُبَدٍ وهو طائر ، فإن فُعَلاً لا يُجمَع على ذلك . وإن كنت سَكَّنتَ الباءَ فقد أَسأْتَ ، لأَن تسكينَ الفتحة غيرُ معروف . ولا حجةَ لك في قول الأَخطل :

وما كل مغبون إذا سلْفَ صفقةً
براجع ما قد فاته برداد

ولا في قول الآخر :

وقالوا : ترابيٌّ ، فقلتُ صدقتمُ
أَبي من تُراب خلْقَه اللهُ آدما

لأَن هذه شواذّ . فأَما قول جميل :

وصاحَ ببيْنٍ من بثينةَ والنوى
جميعٌ بذات الرضم صَرْدٌ محجَّلُ

فإن مَن أَنشده بضمِّ الصادِ مخطىء ، لأَنه يذهب إلى

أن جميلا أراد : الصُّرَدَ ، فسكّن الراءَ . وإنما هو صَرْدٌ ، أي خالص... يعني غرابا أَسودَ ليس فيه بياض. ومُحَجَّلٌ : مقيد . لأَن حلقةَ القيدِ تُسمى حِجْلا ...

بشار : يا هذا ، دعْني من أَباطيلك ، فإني لمَشغولٌ عنك .

مشهد

مع امرىء القيس .

ويسأل عن امرىء القيس بن حجر ، فيقال :
ها هو ذا بحيث يسمعك .

ابن القارح : يا أبا هند ، إن رواةَ البغداديين يُنشدون في « قِفا نَبكِ»
هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها . أعني قولَك :

* وكأن ذرا رأْسِ المجيمر غدوةً *

وكذلك : * وكأَنَ مُكاكيَّ الجِواء ...

* وكأن السباعَ فيه غرقى ...

امرؤ القيس : أَبْعَدَ اللهُ أُولئك ! لقد أَساءُوا الروايةَ . وإذا فعلوا ذلك
فأَيُّ فرق بين النظم والنثر ؟ وإنما ذلك شيءٌ فعلَه مَن لا
غريزةَ له في معرفة وزنِ القريض ، فظَنَّه المتأَخرون
أَصلاً في المنظوم . وهيهاتَ هيهات !

ابن القارح : أَخبرْني عن قولك :

* كبِكرِ المقاناةِ البياض بصُفرةٍ *

ماذا أردتَ بالبكر ؟ فقد اختلف المتأَولون في ذلك فقالوا: البيضة ، وقالوا : الدرَّة . وقالوا : الروضة . وقالوا : الزهرة . وقالوا : البردية ...

وكيف تنشد : البياضِ ، أم البياضَ ، أم البياضُ ؟

امرؤ القيس : كل ذلك حسَن . وأَختار : البياضِ ، بالكسر .

ابن القارح : لو شرحتُ لك ما قال النحويون في ذلك لعجبتَ . وبعضُ المعلمين ينشد قولك :

* من السيْل والغُثاء فَلكةَ مِغزَلِ *

فيشدد الثاء .

امرؤ القيس : إن هذا لَجهول . وهو نقيضُ الذين زادوا الواوَ في أوائل الأبيات [المذكورة آنفاً] : أُولئك أَرادوا النسق فأفسدوا الوزنَ . وهذا البائس أَراد أن يُصحح الزنة فأفسد اللفظَ .

ابن القارح : فأَخبرْني عن كلمتك الصادية . والضادية . والنونية التي أولها :

لِمنْ طلَلٌ أبصرتُه فشَجاني

كخطِّ زَبورٍ في عسيبِ يَمانِ

لقد جئتَ فيها بأشياء ينكرها السمع ...

هل كانت غرائزكم لا تُحس بهذه الزيادة ، أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامضِ الكلام وأنتم عالمون بما يقع فيه ؟

امرؤ القيس : أدركْنا الأولين من العرب لا يَحفِلون بمجيءِ ذلك ، ولا أدري ما شَجَن عنه . فأَما أنا وطبقتي فكنا نمر في البيت حتى نأْتي إلى آخره . فإذا فَنيَ أَو قارَبَ ، تبيَّنَ أَمرُه للسامع .

ابن القارح : أَخبرني عن التسميط المنسوبِ إليك ، أَصحيحٌ هو عنك؟ وينشده الذي يرويه بعضُ الناس :

يا صَحْبَنا عَرِّجوا تقفْ بكم أُسُجُ
مَهْرِيةٌ دُلُجُ في سَيْرها مُعُج
طالتْ بها الرحَلُ

فعرَّجُوا كلهمْ والهم يَشغلُهمْ
والعيسُ تَحملهم ليست تُعللهم
وعاجتْ الرُّمُلُ

يا قوم إن الهوى إذا أَصابَ الفتى
في القلب ثم ارتقى فهَدَّ بعضَ القوى
فقد هَوَى الرجُلُ

امرؤ القيس : لا والله ما سمعت هذا قط ، وإنه لَقَرِيٌّ لم أَسلكْه . وإن الكذب لكثير . وأَحسَبُ هذا لبعض شعراءِ الإسلام .

ولقد ظلمني وأساءَ إليَّ ؛ أَبَعْدَ كلمتي التي أولُها :

ألا انعمْ صباحاً أيها الطللُ البالي
وهل ينعَمَنْ من كان في العصرِ الخالي

وقولي :

خليليَّ مُرَّا بي على أُمِّ جندُب
لأَقضيَ حاجات الفؤاد المعــذَّبِ

يقال لي مثلُ ذلك ؟ والرجزُ من أَضعف الشعر . وهذا الوزنُ من أَضعف الرجَز .

ابن القارح . وقد عجب لما سمع :
كيف يُنشَد قولُك :

جالتْ لتصرعَني فقلتُ لها اقصِري
إني امرؤٌ صرْعي عليكِ حَرام

أتقول : حرامْ . فتقوي[1] ؟ أم تقول : حرامِ . فتخرجه مخرج : حَذامِ وقطامِ ؟
وقد كان بعضُ علماءِ الدولة الثانية ـ العباسية ـ يجعلُك لا يجوزُ الإقواءُ عليك .

---

(١) البيت من ميميته : لمن الديار غشيتها بسحام ، فعمايتين فهضب ذي أقدام
والقافية فيها ، على الكسر .

امروْ القيس : لا نَكِرةَ عندنا في الإقواء .

ابن القارح : وإنا لنروي لك بيتاً ما هو في كلِّ الروايات ، وأظنه مصنوعاً لأَن فيه ما لم تجر عادتُك بمثله ، وهو قولك :

وعمرو بن درماءَ الهمام إذا غدا
بصارمـــه يمشي كمشيـــة قَسْوَرَا

امروْ القيس : أَبْعَدَ اللهُ الآخرَ ، وإن نسبةَ مثلِ هذا إليَّ ، لأَعُدُّه إحدى الوصمات .

[ابو العلاء مفسراً] :

وإنما أنكر حذفَ الهاءِ من قسورة ، لأنه ليس بموضع حذف . وقلما يصابُ في أشعار العرب مثلُ ذلك . فأَما قول القائل :

إن ابنَ حارثَ إنْ أَشْتَقْ لرؤيته
أَو أَمتدحْه ، فإن الناس قد علموا

فليس من هذا النحو ، إذ كان التغييرُ إلى الأَسماءِ الموضوعة ، أَسرعَ منه إلى الأَسماءِ التي هي نكِرات ، إذ كانت النكرةُ أصلا في الباب .

مشهد

مع عنترة العبسي

ابن القارح . وهو ينظر فإذا عنترة العبسي متلدد في السعير :

ـ مالك يا أخا عبس ؟ كأنك لم تنطق بقولِك :

ولقد شربتُ من المدامةِ بعدما
ركد الهواجرُ ، بالمَشُوفِ المُعلَمِ
بزجاجةٍ صفـــراءَ ذاتِ أَسِـــرَّة
قُرنتْ بأزهرَ في الشمالِ مُفَدَّمِ

وإني إذا ذكرتُ قولَك :

* هل غادرَ الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ *

لأقول : إنما قيل ذلك وديوان الشعرِ قليلٌ محفوظ . فأما الآنَ فقد كثُرت على الصائد ضِباب . ولو سمعتَ ما قيل بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم لعتبتَ

نفسَك على ما قلت ، وعلمتَ أَن الأَمرَ كما قال حبيب ابن أَوس :

فلو كان يَفنَى الشعرُ أَفناه ما قَرتْ
حِياضُكَ منــه في العصورِ الذواهبِ
ولكنه صَوْبُ العقولِ إذا انجلـــتْ
سحائبُ منــه أُعقِبــتْ بسحائبِ

عنترة : وما حبيبكم هذا ؟

ابن القارح : شاعر ظهر في الإسلام .

« وينشده شيئا من نظمه »

عنترة : أَما الأَصلُ فعربي . وأَما الفرعْ فنطَق به غَبِيٌّ . وليس هذا المذهبُ على ما تعرفُ قبائلَ العرب .

ابن القارح . ضاحكا : إنما يُنكَر عليه المستعارُ . وقد جاءَت العاريةُ في أَشعارِ كثيرٍ من المتقدمين ، إلا أَنها لا تجتمعُ كاجتماعِها فيما نظمه حبيبُ بن أوس .

فما أَردتَ بالمشوفِ المعلم : الدينارَ ، أَم الرداءَ ؟

عنترة : أي الوجهين أَردتَ . فهو حسَن ولا ينتقض .

ابن القارح: لقد شقَّ عليَّ دخول مِثْلِك إلى الجحيم . وكأَنَّ أُذني مصغيةٌ إلى قينات الفسطاط وهي تغرد بقولك :

أَمِنْ سُميةَ دمعُ العيــن تذريــفُ
لو أَن ذا منكِ قبلَ اليوم معروفُ

تجللتْنِي إذ أَهــوى العصا قِبَــلي
كأَنها رشَأٌ في البيت مطروف

العبدُ عبدكُمُ ، والمــالُ مالكمُ
فهــل عذابُكِ عني اليومَ مصروف

وإني لأَتمثل بقولِك :

ولقــد نزلتِ فــلا تَظُني غيــرَه
مني بمنزلــة المُحَبِّ المُكــرَم

ولقد وُفِّقتَ في قولك : المُحَبِّ ، لأَنك جئتَ باللفظِ على ما يجبُ في « أحببت » وعامةُ الشعراءِ يقولون : أَحببتُ . فإذا صاروا إلى المفعول قالوا : محبوب . قال « زهيرُ بن مسعود الضبي » :

واضحةُ الغُرَّةِ محبوبةٌ والفرسُ الصالحُ محبوبُ

وقال بعضُ العلماءِ : لم يُسمَع بمُحَبٍّ إلا في بيتِ عنترة . وإن الذي قال : أَحببتُ ، ليجب عليه أَن يقول : مُحَبّ . إلا أن العربَ اختارت : أَحَبَّ ، في الفعلِ ، وقالت في المفعول : محبوب .

* * *

[يصمت عنترة . مشغولا بما هو فيه من عذاب . ويمضي ابن القارح في سؤالِ مَن لقيهم من شعراءِ الجحيم في الغفران : علقمة ابن عبدة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث اليشكري ، وطرفة بن العبد . فلا يجد عندهم جوابا عما يشغلُه من شعرهم وأَخبارهم ، لما هم فيه من عذاب] .

مشهد

مع أوس بن حجر

[أبو العلاء ممهداً :]

ويلفِتُ عنقَه يتـأَمل ، فإِذا هو

بـأَوس بن حجر .

ابن القارح : يا أَوسُ . إن أَصحابَك لا يجيبون السائلَ ، فهل لي
عندك من جواب ؟ فإني أُريد أَن أَسأَلك عن أَبياتٍ في
قصيدتِك التي أولها :

هل عاجلٌ من مَتاع الحيِّ منظورُ
أَم بيتُ دَوْمَةَ بعد الوصلِ مَهْجُورُ

تُروَى كذلك في قصيدةِ « النابغة » - الذبياني - التي
أَولُها :

ودِّعْ أُمامـةَ والتوديع تعذيـرُ
وما وداعُك مَن قفَّتْ به العِيـرُ

وكلاكما معدودٌ في الفحول . فعلى أيِّ شيءٍ يُحمَلُ ذلك ؟

أوس : قد بلَغني أن نابغةَ بني ذبيانَ في الجنة . فاسأله عما بدا لك فلعله يخبرك ، فإنه أجدَرُ بأن يعيَ هذه الأشياءَ ، أَما أَنا فقد ذهلت : نارٌ توقَدُ . وبَنان يُعقَدُ . إذا غلب عليَّ الظمأُ رُفِعَ لي شيءٌ كالنهر . فاذا اغترفتُ منه لأشربَ وجدتُه سعيرا مضطرما فليتني كنتُ دَرِما — وهو الذي يُقال فيه : أَوْدَى درِم [1] .

ابن القارح : إنما أَردتُ أَن آخذَ عنك هذه الأَلفاظَ . فأُتحِفَ بها أَهلَ الجنة فأَقول : قال لي أَوس . وأَخبرني أَبو شريح [كنية أوس] .

وكان في عزمي أن أَسأَلك عما حَكاه « سيبويه » في قولك :

* تُواهِقُ رِجْلاها يــداهُ * [2]

فإني لا أَختار أن تُرفَع الرجلانِ واليَدان ، ولم تدعُ إلى ذلك ضرورةٌ ، لأَنك لو قلت :

تواهق رجليها يداه * لم يختل الوزنُ

---

(١) هو : درم الشيباني . طلبه النعمان بن المنذر وجعل لمن يأتيه به جائزة ، فأدركه قوم فمات في أيديهم قبل أن يبلغوا به النعمان . فقيل : أودي درم . وضرب به المثل .

(٢) البيت من شواهد سيبويه . انظر الشرح في (رسالة الغفران) هامش ص ٣٤١ ذخائر .

•

ولعلك . إن صحَّ قولُك لذلك ، أَن تكونَ طلبت المشاكهةَ . وهذا المذهبُ يَقوى إذا رُوِي : * يَدَاها * بالإضافةِ إلى المؤنث . فأَما في حالِ الإضافة إلى ضميرِ المذكر فلا قوةَ له .

وإني لَكارهٌ قولك :

* والخيل خارجة من القسطال *

أَخرجت الاسمَ - القسطال - إلى مثالٍ قليل ، لأَن « فعلالا » لم يجىءْ في غير المضاعف ...

* * *

[أَوس ، في عذابه ، لا يجيب . وكذلك لا يجد ابن القارح جوابا عن سؤالـه « أَبا كبير الهذلي » في المروي من شعره]

مشهد

مع الأَخطل التغلبي

[أبو العلاء مهداً :]

وينظر الشيخ ، فإذا هو برجلٍ يتضور .

فيقول : مَنْ هذا ؟ فيقال : الأَخطل التغلبي .

ابن القارح : ما زالت صفتُك للخمر ، حتى غادرتْك أُكُلاً للجَمْرِ . كم طربتِ الساداتُ على قولِك :

أَناخوا فجَرُّوا شاصياتٍ كأَنها
رجالٌ من السودان لم يتسربلوا
فقلت ٱصبَحوني لا أَبا لأَبيكم
وما وضَعوا الأَثقالَ إلا ليفعلوا
فصَبُّوا عُقَارا في الإِناءِ كأَنها
إذا لَمحوها جُذوةٌ تَتَأَكَّلُ

وجـاءُوا ببيسانيــةٍ هي بعدمــا
يعلُّ بها الساقي أَلَذُّ وأَسهــل

تمر بهــا الأَيدي سنيحا وبارحــا
وتوضع باللهم حَيِّ . وتُحمَــل

فتوقف أحيــانا فيفصل بيننــا
غنــاءُ مغــن أَو شواءٌ مُرعَبــل

فلذَّتْ لمرتــاح وطابــتْ لشارب
وراجَعَني منهــا مراحٌ وأَخْيَــلُ

تدب دبيبــا في العظام كأَنــــه
دبيب نِمالٍ في نقــاً يتهيَّــلُ

فقلت اقتلوهــا عنكــم بمزاجِهــا
وحُبَّ بهــا مقتولةً حيــن تُقتــل

الأخطل : إني جزتُ الذارعَ ولقيتُ الدارعَ . وهجرتُ الآبدةَ ورجوتُ أن تُدْعَى النفسُ العابدة . ولكنْ أبت الأَقضية .

ابن القارح : أَخطأْتَ في أَمرين : جاءَ الإِسلامُ ولم تدخل فيه . ولزمتَ أَخلاقَ سَفِيه . وعاشرتَ « يزيدَ بنَ معاوية » وأَطعتَ نفسَك الغاوية . وآثرتَ ما فني على باق . فكيف لك بالإِباق ؟

الأَخطل . وهو يزفر زفرة تعجب لها الزبانية :

آه على أيام يزيد . أَسُوفُ عنده عَنبرا . وأمزح معه مزحَ خليل . فيحتملني احتمالَ الجليل . وكم ألبسني من موشِيٍّ . أسحَبْه في البَكرة أو العشي . وكأني بالقيان الصادحةِ بين يديه تغنيه بقوله :

ولهــا بالمــاطرون إذا
أكلَ النملُ الذي جمعا
خلفةً حتى إذا ضهــرت
سكنتْ من جِلَّقٍ بِيَعــا
في قِبَابٍ حول دَسْكَــرةٍ
حولها الزيتونُ قد يَنعــا
وقفــتْ للبــدرِ ترقبُه
فإذا بالبــدرِ قد طلعــا

ولقد فاكهتُه في بعض الأَيام وأَنا سكرانُ فقلت :

اسلمْ سلمتَ أَبــا خالدٍ
وحيَّاك ربــك بالعَنْقَزِ
أَكلتَ الدجاجَ فأَفنيتَها
فهل في الخنانيص من مغمز

فما زاد عن ابتسام ، واهتز للصلة اهتزاز الحسام .

ابن القارح : مِن ثَم أُتيتَ . أَما علمتَ أَن هذا الرجلَ عانِدٌ ، وفي

جبالِ المعصية سائِد ؟ فعلامَ اطلعتَ من مذهبِه : أكان موحِّدا ، أم وجدتَهُ مُلحِدا ؟

الأَخطل : كانت تُعجبه هذه الأَبيات :

أخالد هاتي خَبِّريــني وأعلني
حديثك إني لا أسِرُّ التناجيــا

حديثَ أبي سفيان لمــا سما بها
إلى أُحُدٍ حتى أقــام البواكيــا

وكيف بغى أمراً عليٌّ ففاته
وأورثه الجــدُّ السعيــدُ معاويا

وقومي فعُلِّيني عــلى ذاك قهوةً
تَحلَّبهــا العيسيُّ كرما شآميا

. . . .

ابن القارح : عليك البهلة ! قد ذهلتِ الشعراءُ من أهلِ الجنة والنار عن المدح والنسيب . وما شُدِهتَ عن كُفرك ولا إساءتك .

إبليس . يسمع ذلك الخطاب فيقول للزبانية :

ـ ما رأيتُ أعجزَ منكم إخوانَ مالك [خازن [illegible]

الزبانية : كيف زعمت ذلك يا أبا مرة ؟

إبليس : [مشيراً إلى ابن القارح] :

– ألا تسمعون هذا المتكلمَ بما لا يعنيه ؟ قد شغلكم وشغلَ غيرَكم عما هو فيه . فلو أن فيكم صاحبَ نَحيزةٍ قوية ، لوثب وثبةً حتى يلحقَ به فيجذبَه إلى سَقَر .

الزبانية : لم تصنع شيئاً يا أبا زوبعة . ليس لنا على أهل الجنة سبيل .

ابن القارح ، يشتم إبليسَ
ويلعنه ويظهر الشماتة بـه .

إبليس ، لابن القارح :

– ألم تُنْهُوا عن الشمات يا بني آدم ؟ ولكنكم بحمدِ الله ما زُجِرْتم عن شيءٍ إلا وركبتموه .

ابن القارح : أنت بدأت آدم بالشماتة والبادئ أظلم .

ثم يعود إلى كلام الأخطل فيقول :

أأنت القائل هذه الأبيات :

ولستُ بصائم رمضانَ طوعا
ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي ؟

[وينشده بقية الأبيات] (١)

إبليس : أجل ، وإني لنادم ، وهل أغنت الندامةُ عن أخي كُسُع ؟

(١) تجدها في رسالة الغفران : ٣٥٠ ط ٥ ذخائر .

مشهد

مع مهلهل التغلبي

[أبو العلاء ممهداً] :

ويَملُّ الشيخ من خطابِ أهلِ النار . فينصرف إلى قصرِه المشيد بالجنة ، فإذا صار على بُعْدِ ميلٍ أو ميلين ، ذكر أنه ما سأَل عن مهلهل التغلبي ولا عن المرقِّشين ، وأنه أغفَلَ الشنفرى وتأَبَّطَ شرا ...

ابن القارح ، منادياً وقد رجع على أدراجِه :

ـ أين عديٌّ بن ربيعة ؟

خزنة النار : زِدْ في البيان .

ابن القارح : الذي يستشهد النحويون بقوله :

ضربتْ صدرَها إليَّ وقالت

يا عَدِيًّا لقد وقتْك الأَواقي

وقد استشهدوا له بـأَشياءَ كثيرة [وينشد بعضها] .

خزنة النار : إنك لتعرِّف صاحبَكَ بـأَمرٍ لا معرفة عندنا منه : ما النحويون وما الاستشهاد ، وما هذا الهذيان ؟ نحن خزنةُ النارِ ، فبيِّن غرضَك تُجَبْ إليه .

ابن القارح : أُريد المعروفَ بمهلهل التغلبي ، أَخي كليب وائل .

خزنة النار : ها هو ذا يسمع حِوارَك فقلْ ما تشاء .

ابن القارح ـ لمهلهل : يا عديَّ بن ربيعة ، أَعزِزْ عليَّ بولوجِك هذا المولج ! لو لم آسف عليك إلا لأَجلِ قصيدتك التي أَولها :

أَليلتَنا بذي حُسَم أَنيري
إذا أَنتِ انقضيتِ فلا تحوري

لكانت جديرةً أَن تطيل الأَسف عليك .

وقد كنتُ إذا أَنشدتُ أَبياتك في ابنتِك المزوَّجةِ في « جنب » تغرورقُ من الحزن عيناي [1]

فأَخبرْني لم سُمِّيت مهلهلا ؟ فقد قيل إنك سميت

---

(١) يشير أبو العلاء إلى قول مهلهل في ابنته :

عز على تغلب الذي لقيت ... أخت بني المالكين من جشمْ
أنكحها فقدها الأراقم في ... جنب وكان الحباء من أدم
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا ... يغنون من عيلة ولا عدم

وجنب : حي وضيع من أحياء مذحج .

بذلك لأَنك أَول من هلهل الشعر ، أَي رقَّقه .

المهلهل : إن الكذبَ لكثير . وإنما كان لي أَخ يقال له امرؤ القيس. – ابن ربيعة – فأَغار علينا زهيرُ بن جَناب الكلبي ، فتبعه أَخي في زرافة من قومه ، فقال في ذلك :

لما تَوقل في الكُراع هَجِينُهم
هلهلتُ أَثـأَرُ مالِكاً أَو صنبلا
وكأَنــه بـــازٌ علَتْــهُ كُبْرَةٌ
يَهدي بِشكَّتِه الرعيلَ الأَوَّلا

– هلهلت ، أَي قاربت ، ويقال ، توقفتُ .

ويعني بالهجين : زهيرَ بن جناب – فسمِّي مهلهلا . فلما هلك شُبِّهت به فقيل لي : مهلهل .

ابن القارح : الآن شفيتَ صدري بحقيقةِ اليقين . فأَخبرْني عن هذا البيت الذي يُروَى لك :

* أَرعدوا ساعةَ الهياج وأَبرقنا كما توعِد الفحول الفحولا *

فإن « الأَصمعي » كان يُنكِره ويقول إنه مولد ، وكان « أَبو زيد » يستشهدُ به ويُثبته .

مهلهل : طال الأَبدُ على لُبَد . لقد نَسِيت ما قلتُ في الدارِ العاجلة. فما الذي أَنكر منه ؟

ابن القارح : زعم الأَصمعي أَنه لا يقال أَرعدَ وأَبرقَ . في الوعيدِ

ولا في السحاب .

مهلهل : إن ذلك لخطأٌ من القولِ . وإن هذا البيت لم يقلْه إلا رجلٌ من جِذْم الفصاحةِ ، إمَّا أنا وإما سِوايَ . فخذْ به وأَعرِضْ عن قولِ السفهاء .

[يتابع ابن القارح السؤال عن الشعراء : المرقِّشَينِ ، والشنفَرى ، وتأَبَّطَ شرا . — فيلقاهم واحداً بعد الآخر ، ويحاوِرُهم فيما يشغل العلماءَ من أَشعارِهم وأَخبارِهم ، وقلَّ منهم مَن أَجاب] .

الفصل الثالث

عودة إلى الجنّة

- مع أبينا آدم
- في روضة الحيّات
- جنّة الرُّجّز
- ختام

مشهد

مع أبينا آدم

[بعد رحلة الجحيم يعود ابن القارح إلى الجنة .
فيلقى في الطريق إليها أبانا آدم عليه السلام] .

ابن القارح : يا أبانا ، صلى الله عليكَ ، قد رُوِي لنا عنك شِعرٌ منه قولك :

نحن بنو الأَرضِ وسكانُها
منها خلِقْنا وإليها نعودْ
والسعد لا يبقى لأَصحابِهِ
والنحسُ تمحوه ليالي السعودْ

آدم : إن هذا القولَ حقٌّ ، وما نطقه إلا بعضُ الحكماء . ولكني لم أَسمع به حتى الساعة .

ابن القارح : فلعلك يا أَبانا قلته ثم نسيتَ ، فقد علمت أَن النسيانَ متسرع إليك . وحسبك شاهدا على ذلك ، الآيةُ المتلوَة

في القرآن الكريم : « ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ من قبلُ فنَسِيَ ولم نجدْ له عَزْما » . وقد زعم بعض العلماءِ أَنك إنما سمِّيتَ إنسانا لنسيانِك . واحتج على ذلك بقولهم في التصغير : أُنَيْسِيان ؛ وفي الجمع : أُناسِيٌّ . وقد رُوِي أَن الإِنسانَ من النسيان ، عن « ابن عباس » وقال الطائي – أَبو تمام :

لا تَنسيَنْ تلك العهودَ وإنما
سمِّيتَ إنسانــا لأَنك ناسِي

وقرأَ بعضهم : « ثم أَفيضوا من حيث أَفاض الناسِ »[1] بكسر السين ، يريد : الناسِيَ ، فحذَفَ الياءَ كما حُذِفت في قوله تعالى : « سَواءٌ العاكِفُ فيه والبادِ » .

فأَما البصريون فيعتقدون أَن الإِنسانَ من الإِنس ، وأَن قولهم في التصغير : أُنيسيان ، شاذ ؛ وقولهم في الجمع : أُناسيّ أَصله أُناسِين ، فأُبدلت الياءُ من النون .

والقول الأَول أَحسن .

آدم : أَبيتم إلا عُقوقا وأَذِيَّة ! إنما كنت أَتكلم بالعربيةِ وأَنا في الجنةِ ، فلما هبطت إلى الأَرضِ نُقِــل لساني إلى السريانية . فلم أَنطق بغيرِها إلى أَن هلكت ، فلما ردَّني الله ، سبحانه وتعالى ، إلى الجنة ، عادتْ عليَّ

(١) من آية البقرة : ١٩٩ . وقراءة الجمهور برفع الناس ، فاعلا .

العربية . فأَيَّ حِينٍ نظمت هذا الشعرَ : في العاجلة أَم الآجلة ؟ والذي قال ذلك يجب أَن يكون قاله وهو في الدارالماكرة ،ألاترىقوله: «منها خلقناوإليها نعود «فكيف أقول هذا المقالَ ولساني سرياني ؟ وأَما الجنة قبل أن أَخرج منها ، فلم أَكن أدري بالموت فيها ، وأَنه مما حُكِم به على العباد .... وأَما بعد رجوعي إليها ، فلا معنى لقولي : « وإليها نعود « لأَنه كَذِب لا محالةَ ، ونحن معاشرَ أَهلِ الجنة خالدون مخلدون .

ابن القارح : إن بعضَ أَهلِ السِّيَرِ يزعمُ أَن هذا الشعرَ وجدَه « يعرُبُ » في متقدم الصحفِ بالسريانية ، فنقله إلى لسانِه – العربي – وهذا لا يمتنع أَن يكون .

وكذلك يروون لكَ ، صلى الله عليك ، لما قتلَ « قابيلُ » « هابيلَ » :

تغيَّرت البـــلاد ومَـــن عليها
فوَجْه الأَرضِ مُغبَرٌّ قبيـــحُ
وأَوْدى رَبْـــعُ أَهليها فبانوا
وغودرَ في الثرى الوجْهُ المليحُ

وبعضُهم يُنشد : « وزال بشاشة الوجه المليح « على الإقواءِ . وفي حكايةٍ معناها ما أَذكرُ ،أَن رَجُلا من بعضِ ولدِك يُعرفُ بابن دُريد، أَنشد هذا الشعرَ وكانت روايتُه :

* وزالَ بشاشةُ الوجهِ المليحِ *

فقال أولَ ما قال : أقْوَى

وكان في المجلس « أبو سعيد السيرافي » فقال : يجوز أن يكون قال :

* وزال بشاشةَ الوجهُ المليحُ

بنصب * بشاشة * على التمييز . وبحذفِ التنوين لالتقاءِ الساكنين ....

قلت : هذا الوجهُ الذي قاله أبو سعيد .

شرٌّ من إقواء عشر مراتٍ في القصيدة الواحدة .

آدم : أعْزِزْ عليَّ بكم معشرَ أُبَيْنِيَّ . إنكم في الضلالة متهوِّكون . آليتُ ما نطقتُ هذا النظمَ ولا نُطِقَ في عصري . وإنما نظمه بعضُ الفارغين . فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله ! كذبتم على خالقِكم وربِّكم . ثم على آدمَ أبيكم . ثم على حواءَ أمِّكم .

وكذب بعضُكم على بعضٍ . ومآلُكم في ذلك إلى الأرض .

* * *

في روضة الحيات

[يستأْنف ابن القارح سيره . ويضرب سائرا في الفردوس ، فإذا هو بروضةٍ فيها حيَّات ، يعجب لوجودِها في الجنة . فتنطق إحداها وتقول إنها الحية « ذات الصفا » التي حكى النابغة الذبياني قصتَها في شعره . وتنشد القصيدة . وإذا حيَّة أُخرى فقيهة بالعربية ، عالمة بالقراءات . كانت تسكن في بيت « الحسن البصري » . فتسمعه يتلو القرآن ليلا . فحفظته كله منه . فلما مات انتقلت إلى جدارٍ في دار « أَبي عمرو ابن العلاء » فرغبتْ عن حروف من قراءة الحسن البصري . ثم انتقلت إلى الكوفة فأَقامت في جوار « حمزة بن حبيب » فسمعتْه يقرأُ بأَشياءَ ينكرها عليه أصحاب العربية .

وتدعوه هذه الحيةُ – بعد حوار طويل في القراءات – إلى الإقامة معها . وتغريه بأَنها سوف تمتعه . فيُذعَر منها ، وينطلق في غيطان الجنة] .

* * *

مشهد

في جَنَّةِ الرُّجَّز

[أبو العلاء ، ممهداً :]

ويمر بـأَبياتٍ ليس لها سُموقُ أَبياتِ الجنة ،
فيسأَل عنها فيقال : هذه جنة الرجز ،
يكون فيها : أَغلبُ بني عِجل ، والعَجَّاجُ ،
ورؤبة ، وأَبو النجم ، وحميد الأَرقط ،
وعذافرُ بن أَوس ، وأَبو نخيلة » وكلٌّ من
غفِر له من الرجاز .

ابن القارح ، لهم جملةً : تبارك العزيز الوهاب . لقد صدق الحديثُ المروي : « إن اللهَ يحب معالي الأُمور ويكره سفسافها » . وإن الرجزَ لمنْ سفسافِ القريض . قصَّرتم أَيها النفرُ فقصِّر بكم .

ثم يقول لرؤبة ، وقد عرض له :

ـ يا أبا الجحاف ، ما كان أكلَفك بقوافٍ ليست بالمعجبة : تصنع رجَزاً على [حرف] الغين ، ورجزاً على الطاءِ ، وعلى الظاءِ ، وعلى غيرِ ذلك من الحروف النافرة ، ولم تكن صاحبَ مثلٍ مذكور ، ولا لفظٍ يستحسَن عَذْبٍ .

رؤبة ، مغضبا :

ـ إليَّ تقول هذا ، وعني أخذ « الخليلُ » وكذلك « أبو عمرو ابن العلاءِ » [في الشواهد اللغوية] وقد غبرتَ في الدار السالفة تفتخر باللفظةِ تقع إليك مما نقله أُولئك عني وعن أشباهي ؟

ابن القارح : لو سُبِك رجَزُك ورجَزُ أبيك ـ العجَّاج ـ لم تخرج منه قصيدةٌ مستحسَنة . ولقد بلغني أن « أبا مسلم » كلَّمك بكلامٍ فيه « ابنُ ثأْداءَ ـ أي أَمَة ـ فلم تعرفها حتى سأَلتَ عنها بالحيِّ . ولقد كنت تأْخذ جوائزَ الملوكِ بغيرِ استحقاق . وإن غيرَك أولى بالأَعطيةِ والصلات .

رؤبة : أليس رئيسُكم في القديم والذي رجعتْ إليه المقاييسُ ، كان يستشهد بقولي ويجعلني له كالإمام ؟

ابن القارح : لا فخر لك أن استُشهد بكلامك ، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أَمَة وكعاءَ . وكم روى النحاة عن طِفْلٍ ما له في الأَدبِ من كِفل .

رؤبة : أَجئتَ لخصامِنا في هذا المنزل ؟ فامضِ لطيَّتِك ، فقد أَخذتَ بكلامِنا ما شاءَ الله .

ابن القارح : أَقسمت ما يصلحُ كلامُكم للثناء ، ولا يفضُل عن الهِناء . تصكون مسامعَ المتَدَح بالجندلِ ، وإنما يطربُ إلى المَنْدلِ . ومتى خرجتم عن صفةِ جمل ترثون له من طولِ العمل ، إلى صِفة فرسٍ سابح أَو كلبٍ للقنص نابح ، فإنكم غيرُ الراشدين .

رؤبة : إن الله سبحانه قال : « يتنازَعون فيها كأْساً لا لغوٌ فيها ولا تأْثيم » وإن كلامَك لمِن اللغو .

« فإذا طالت المخاطبة بينه وبين رؤبة ، سمع العجاجُ فجاءَ يسأَل المحاجَزَة بينهما » .

مشهد

المشهد الختامي

عودة إلى جنة الغفران

[أبو العلاء ، يختم الرحلة] :

ويذكر . أذكره الله بالصالحات . ما كان يلحَق أخا الندام من فتورٍ في الجسد من المدام . فيختار أن يعرِض له ذلك من غيرِ أن ينزف له لُبٌّ . فإذا هو يَخالُ في العظام دبيبَ نَمْلٍ . فيترنم بقول إياسِ بنِ الأَرَتِّ :

أعاذلَ لو شربتِ الخمرَ حتى
يظلَّ لكلِّ أنملةٍ دبيب
إذن لعذرتِني وعلمتِ أني
لما أنفقتُ من مالي مصيبُ

ويتكىء على مفرَشٍ من السندس . ويأمر

الحورَ العِينَ أَن يحملن ذلك المفرشَ فيضعنه على سريرٍ من سُرر أَهل الجنة ، وإنما هو زبرجد أَو عسجد [1] ... فيُحمل على تلك الحال إلى محله المشيدِ بدارِ الخلود ، فكلما مرَّ بشجرةٍ نضحتْه أَغصانُها بماءِ الورد ، قد خلِط بماءِ الكافور ، وبمسْكٍ ما جُنِيَ من دِمَاءِ الفور ، بل هو بتقدير اللهِ الكريم . وتناديه الثمراتُ من كل أَوب ، وهو مستلقٍ على الظهر : هل لك يا أَبــا الحسن.. هل لك؟ فإذا أَراد عنقوداً من العنب أَو غيره ، انقضب من الشجرة بمشيئة الله وحملتْه القدرةُ إلى فيه [2] ...

وأَهل الجنة يلقونه بـأَصناف التحية ، « وآخرُ دعواهم أَن الحمد لله ربِّ العالمين »

لا يزال كذلك أَبداً سرمداً ، ناعماً في الوقت المتطاول منعَّما .

---

(١) كأنه يتمثل بآية الغاشية : « فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة » .

(٢) بمثل هذا تأول أكثر المفسرين آية الحاقة : « في جنة عالية * قطوفها دانية » وآية الدهر : « ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا » .

خاتمة

إلى هنا تنتهي رؤيا « أبي العلاءِ » التي تمثّل فيها عالَمه الآخر ، ورحل بابن القارح إليه ، تاركا له أن ينعم بما اشتهى من ملذات تفنَّن صانعُ الدهر في تشخيصها ، بقدر ما عانى من كبْت وحرمان .

وترون أنها في جملتها مسرحية أدبية لغوية . والعالم الآخر فيها عالم أدبي محض ، لا مجال لالتباسه بالحياة الآخرة في العقيدة الدينية . والأشخاص الرئيسيون فيه . هم الذين أراد أبو العلاء لقاءهم من الشعراءِ الجاهليين والإسلاميين . ومَن اصطفى من اللغويين والرواة للمنادمة أو المناقشة . وقد ترك لابن القارح أن يناقشهم فيما كان يشغل العصر من قضايا اللغة والشعر . بعد أن صاغ الحوار ، ولَقّن كلَّ شخص منهم . ما يريد أن يقول .

وما كان في تشخيصه لعالَمه الآخر . يتمثل ما حفظ ووَعى من الآيات القرآنية وسائر المرويات الإسلامية عن الحياة الآخرة . إلا لكي

يتقي الشططَ في تصوُّره لعالَمه الآخر . فلا يكون ما يعرض من مشاهد النعيم والعذاب . مجافياً للصورة الدينية . وقد كان أبو العلاء مرهَف الحس من هذه الناحية . فحين عرَض له مثلا أن يأْتي بالجن المؤمنين في جنة الغفران . ليسمع أشعارهم ـ وفي تراثنا ديوانٌ لأَشعار الجن . جمعه « المرزباني » في القرن الرابع الهجري ـ احتاط فأَشار إلى ما جاءَ عنهم في سورتي الجن والأَحقاف . وحين احتدمت المنافرة بين الأَعشى والجعدي في مجلس المنادمة . لم يكن تحذيره على لسان ابن القارح . « من مَلَك يمر بالمجلس فيرفع هذه الخصومة إلى الجبار الأَعظم » إلا وهو يتقي الزللَ بمثل قوله : « واستغنى ربُّنا أن تُرفَعَ إليه الأَخبارُ . ولكن ذلك جَرى مجرى الحفَظَةِ في الدارِ العاجلة » مستأْنساً لذلك بآيات الانفطار :

« وإن عليكم لَحافِظين * كِراماً كاتبين * يعلمون ما تَفعلون »

وكل ما أتاحه لابن القارح من نعيم في جنة الغفران . قد استأْنس له كذلك بآيات النعيم في الآخرة . فضلا عن كونه قد عقد الأَمر كله . من بدءِ الرحلة . بمشيئة الله . وصرَّح بأَنها على سبيل التمني والدعاءِ . وعلى وجه التصوُّر المفهوم صراحةً من قوله لابن القارح . في أول مشهد بجنة الغفران :

« وكأَني به . أدام الله الجمالَ ببقائه . إذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة . وقد اصطفى له ندامى من الفردوس ... » .

* * *

ولست بحيث أتصور . أن أبا العلاء نفسه قد اتجه بالغفران إلى قصد العرض التمثيلي . أو خطر له على بالٍ إمكانُ إخراج قصته على المسرح الذي لم يكن لعصره ولا بيئته عهدٌ به . فيما نعلم .

وقد أرى أن الغفران لا تصلح للعرضِ على مسرح اليوم . بموضوعِها الدقيق . ومادتها الصعبة التي لا يستوعبها غيرُ الخاصةِ من دارسي علوم العربية والإسلام . وبعقدتها الرمزية في المعادلة الشاقة بين صوفية أبي العلاء وشهوانية ابن القارح . وفي المأزق الحرج الذي يصور فيه أبو العلاء عالمه الآخر . وهو يتقي مَظِنَّةَ التباسه بالحياة الآخرة في عقيدتنا الدينية .

ثم إني لا أرتاح إطلاقاً . إلى تحميل نصّ رسالة الغفران ما لا يحتمله من مفهومنا للفن المسرحي . وإنما الذي يعنيني منها . كما قلت في تقديمها هو أن أضع في تاريخنا الأدبي هذه الوثيقة لمحاولة فنية رائدة . وأن أعترف بما غاب عني حين درست رسالة الغفران منذ عشرين عاما . فلم يلفتني منها سوى « التشخيص » من حيث هو ظاهرة أسلوبية لأبي العلاء فيها . ثم حين راجعتها في محاضراتي الجامعية . بمصر والسودان . فوقفت أمام لغز مقدمتها التعبانية الموشحة بالسواد . ولمحت من بعيد . سماتِ هذا النص المسرحي فيها .

وما أراني بهذه الإضافة الجديدة قد قلت الكلمة الأخيرة في الموضوع . بل أومن بأن الأجيال بعدنا سوف تعيد النظر في كل ما

قدمنا من دراسات ، وتقول فيها كلمتها : إضافة أو تعديلا وتصحيحاً . أو رفضاً ونسخاً .

وصدقت آيةُ الله فينا :

« وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا » .

فهرس

الصفحة

الصفحة